أثر الغطاء الغابي والنباتي في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية خلال القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجرى

د/ عز العرب أحمد سيلمان
المدرس بقسم التاريخ
كلية الآداب- جامعة أسيوط

مقدمة:

كان لنجاح الصليبيين في تأسيس ممالك لهم في بلاد الشام، أصداء حزن وتشاؤم كبيرين في العالم الإسلامي آنذاك، وعلي العكس تماماً كانت الأحوال بالغرب الأوربي، وإذا كان تفكك القوي الإسلامية في الشرق، وتناحرها المذهبي سبباً من أسباب نجاح الصليبيين، لكن هذا في الحقيقة لا يقلل من جهد وعزيمة القادة الصليبين وقواتهم، الذين وضعوا أهدافاً نصب أعينهم، واستطاعوا بما بذلوه من جهد وعرق أن يبلغوها. وكان من أهم أسباب نجاحهم أيضا، استغلالهم لكل الوسائل والموارد المتاحة بين أيديهم، وكان من أهم هذه الموارد التي تمكنوا من استغلالها، وتطويعها لخدمة هدفهم الاستعماري هو الغطاء الغابي و لنباتي الذي تميزت به بلاد الشام آنذاك، فقد سهل هذا الغطاء ووفر لهم الأقوات والمؤن والمواد الخام التي استخدموها في تشييد الأبراج الخشبية، التي سهلت عليهم اقتحام أسوار المدن العاتية، هذا إلي جانب ما وفره هذه الغطاء من أماكن ساحرة، حيث الأشجار الخضراء و الأنهار التي تجري حولها، شكلت أماكن خلابة وساحرة، وفرت لقادة الصليبين حسن التدبير والتفكير في إدارة المعارك، وحتي في إعداد الاتفاقيات السلمية مع أمراء بعض المدن التي مروا عليها.

وسوف نبرزخلال هذه الدراسة المتواضعة، الدور الذي لعبه الغطاء الغابي في تحركات الصليبين ونجاحهم في إقامة ممالك لهم ببلاد الشام، ودورأهل الشام في شن ألهجمات ألمضادة علي الصليبين، مستغلين الغابات والأشجار، للمقاومة والدفاع عن البقية الباقية من مدنهم الهامة. وكذلك تبرز الدراسة الصناعات التي قامت علي هذا الغطاء الغابي، مستغلين الأخشاب الجيدة التي أمدتهم بها تلك الغابات، لكي يبرز فن أهل الشام في النقش علي الأخشاب، والتي ظهرت علي الأبواب والمشربيات بالمنازل، ومنابر المساجد وواجهات الكنائس، كذلك تناولت صناعة بناء السفن سواء المستخدمة في الصيد أو للقتال، إلي جانب العديد من الصناعات الأخرى، كما ابرز البحث أيضا الاستخدامات السلمية للغابات سواء في الصيد أو تشييد الأديرة للعبادة، إلي جانب معوقات الغطاء الغابي مثل الزلازل أو الجفاف أو الثلوج غيرها، إلي جانب العديد من الجوانب الأخرى التي شملتها الدراسة. ولا يسعني في هذا المجال إلا أن أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور محمد مؤنس عوض لما قدمه لي من أفكار ودعم معنوي ومادة علمية ومقترحات عديدة أفادت البحث، فجزاه الله خير الجزاء، وكل الشكر لمن ساهم في إنجاز البحث.

وبالنهاية أتمنا من الله تعالي التوفيق فيما قصدت إليه،

أولا: الملامح الجغرافية لبلاد الشام:

تمثل الخلفية الجغرافية مدخلا مهماً لإتمام العمل في هذا البحث، نظراً لأن دراسة الخصائص الجغرافية والطبيعية المميزة لإقليم ما، تلعب دوراً هاماً في تشكيل صورة الحياة النباتية والغابية لهذا الإقليم، والتي تمثل انعاكساً لخصائص المناخ ومظاهر السطح الرئيسية والمميزة لهذا الإقليم، ويمكن تصنيف أهم مظاهر السطح في بلاد الشام علي النحو الأتي والذي سوف نتحدث عنه باختصار شديد:

أولا: السهول الساحلية: تختلف في اتساعها من منطقة لأخرى، كما تختلف في خصائصها أيضا، فهي تشغل المناطق الساحلية المطلة علي البحر المتوسط، وتتميز في قطاعات كثيرة منها بالاتساع وخصوبة التربة، ووفرة الموارد المائية واعتدال مناخها، كما هو الحال في سهول العلويين في مناطق سورية، والسهول الساحلية في قطاعات طويلة من لبنان وفلسطين. (١)

ثانياً: الهضاب: وتمثلها هضبة بادية الشام والتي تقع في الجزء الشمالي من هضبة شبه الجزيرة العربية، وهذه الهضبة تنحصر فيما بين السلاسل الجبلية في الشمال وسهول العراق في الشرق وصحراء النفود في الجنوب، وتنحدر هذه الهضبة من الغرب إلي الشرق، ويصل ارتفاعها إلي ستمائة وخمسين متراً، وتحتضن هذه الهضبة نتوءات جبلية متمثلة في جبل سنجار في العراق وجبل الدروز في سورية وشرق الأردن. (٢)

ثالثا: المرتفعات: ويطلق عليها مرتفعات بلاد الشام، والتي تقع إلي الشرق من النطاق الساحلي المطل علي البحر المتوسط، وتظهر هذه المرتفعات علي شكل سلسلتين متوازيتين لكنهما غير متصلتين، تقطعهما الأودية والأنهار المتجهة للبحر المتوسط، ومن بين السلسلتين تمتد سهول طولية، تعرف الأولي باسم جبال أمانوس وتقع في أقصي شمال السلسلة الغربية، أما الثانية فتعرف باسم جبال الأنصارية

(١) محمد صبري محسوب: العالم العربي، دراسة جغرافية، (القاهرة ٢٠٠٢ م) ص ٣٨.

(٢) حسام الدين جاد الرب: جغرافية العالم العربي، طبعة ثانية، (القاهرة ٢٠٠٤) ص٥٧.

(العلويين) وتقع إلي الجنوب من جبال أمانوس، يفصل بينهما مناطق سهلية منخفضة يجري فيها نهر العاصي، الذي يعد من أهم الأنهار التي اعتمدت عليها الزراعة في بلاد الشام.[١] أما في لبنان فتظهر المرتفعات في شكل سلاسل جبال لبنان الغربية، التي تقع إلي الجنوب من جبال العلويين، وتعد أعلي سلاسل جبال الشام وأكثرها وعورة، والي الشرق منها تمتد سلاسل جبال لبنان الشرقية، حيث تضم في طرفها الجنوبي جبل الشيخ وهضبة الجولان السورية، وما بين السلسلتين شرقاً وغرباً يظهر سهل البقاع والذي كونه نهري الليطاني والعاصي. [٢] والي الجنوب من جبال لبنان الغربية تمتد جبال الجليل وعامل، والي الجنوب منهما أيضا تمتد هضبة السامرية والخليل، وفيها يقع غور الأردن، وهو وادي أخدودي ضيق، ويشغل البحر الميت الجزء الجنوبي،منه أما الشمالي فيجري فيه نهر الأردن[٣]

النبات الطبيعي في بلاد الشام:

إذا تحدثنا عن النبات الطبيعي كأحد افرازات التضاريس والمناخ ببلاد الشام، نلاحظ إن أهم النباتات الطبيعية في هذا الإقليم هي الغابات المعتدلة، حيث تتركز في الأقاليم الغربية من بلاد الشام، وتتكون هذه الغابات من أشجار وشجيرات ما يعرف بالبحر المتوسط، والتي توصف بدوام الخضرة، كما تمتاز نباتات هذا الإقليم بأنها مقاومة للجفاف، ومن أهم واشهر أشجار هذه الغابات البلوط والسنديان والأرز والصنوبر، إضافة إلي أشجار الموالح والفاكهة المنتشرة في هذه المناطق. وتتوزع هذه الغابات فوق الجبال الساحلية للبحر المتوسط، وخاصة في سورية ولبنان وفلسطين، وكذلك

---

[١] ابن جبير: رحلة بن جبير، الطبعة الثانية، (أكتوبر، ١٩٩٨م)، ص ٢١٤، ياقوت الحموي: معجم البلدان، (القاهرة، ١٩٠٦م)، ج٤، ص٦٧.

[٢] لين بول: صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس الصليبية، ترجمة فاروق سعد أبو جابر، ط١، (القاهرة، ١٩٩٥)، ص ١٢٨.

[٣] يسري الجوهري: شمال أفريقيا (أسكندرية ١٩٩٨) ص ٤٠٥ – ٤٠٦، حسام الدين جاد الرب: المرجع السابق، ص ٥٨.

الجبال الشرقية للأردن والمناطق الشمالية الشرقية للعراق، وهي المناطق موضوع الدراسة هذه. [1]

التقسيم الإداري لبلاد الشام:

يقسم المؤرخون مناطق بلاد الشام إلي قسمين رئيسيين: **المناطق الشمالية** لبلاد الشام: والتي تشمل علي عدة أقسام أولها: المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات اللذين يعدا من أعظم أنهار العراق، وأطلقوا علي المنطقة إقليم الجزيره. أما القسم الثاني فيدعي سورية البقاع وفيه تقع مدينة إنطاكية[2] والمدن التي تتبعها، وتمتد حتى تصل إلي نهر بانياس. أما القسم الثالث ويطلق عليه سورية الفينيقية وتبدأ من نهر بانياس [3] وتمتد حتى تصل إلي قلعة عتليت (الحجاج) ويضم هذا القسم مدن طرابلس [4] وصور. أما القسم الرابع ويطلق عليه اسم سورية لبنان أو سورية دمشق، حيث يقع جبل لبنان وعاصمة هذا الإقليم مدينة دمشق. [5]

أما أقسام **بلاد الشام الجنوبية** فيذكر يعقوب الفتري أيضا انه يوجد ثلاثة فلسطينيات: القسم الأول وعاصمته بيت المقدس، أما القسم الثاني فعاصمته قيسارية، ويشمل كل بلاد فلسطين، أما القسم الثالث وعاصمته بيسان، كما تعد العربيتين أقساما من سورية، فالقسم الأول وعاصمته بصري والثاني وعاصمته بتراء الواقعة في البرية

---

[1] محمد خميس الزوكة: جغرافية العالم العربي (إسكندرية ١٩٩٥) ص ١٢٩- ١٣٠،

[2] إنطاكية:هي قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، أنظر: ياقوت الحموي:معجم البلدان،ج١، ص٣٥٣.

[3] بانياس: بلده صغيرة جنوب غرب دمشق عند رأس وادي الأردن. أنظر أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٤٩.

[4] طرابلس: مدينة مشهورة علي ساحل بحر الشام بين اللاذقية وعكا، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص٢٨٣.

[5] يعقوب الفتري: تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاوي (الأردن، ١٩٩٨)، ص ١٥٦، بورشارد من ديرجبل صهيون " وصف الأراضي المقدسة " ترجمة سعيد عبد الله البيشاوي، ط١، (الأردن، ١٩٩٥م) ص٣٣-٣٥، محمد محمد مرسي الشيخ: الأمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، (إسكندرية، ١٩٨٠) ص٦١

وتنقسم إلي قسمين الأولي سوريا سوبال تشمل النقب والصحراء، أما القسم الثاني وهي أدوميا وهي المنطقة المشرفة علي حدود مصر وتسيطر علي العديد من الممالك. [١]

وعلي أية حال، يمكن إجمال الصورة ورسم الملامح العريضة والبارزة لموقع بلاد الشام، والتي حددها لنا الرحالة والمؤرخون، بأنها تقع بين مجري نهر الفرات شرقاً إلي البحر المتوسط غرباً، يحدها شمالاً سلسلة مرتفعات تمثل ينابيع الأنهار المتجهة جنوباً، والتي من أهمها نهر قويق[٢] الذي يمر بمدينة حلب، وحتى الحدود الشمالية لشبه جزيرة العرب والحدود المصرية، وذلك كما ذكرها الرحالة المسلم الاصطخري [٣] قائلاً: " أن أرض الشام يقع غربيها بحر الروم وشماليها بلاد الروم، وجنوبها حد مصر وصحراء بني إسرائيل، وآخر حدودها ما يلي مصر ورفح. وتقع في هذه المساحة مجموعة من الطرق الهامة التي تربط أهم المدن الشامية بعضها ببعض، وتصل بين أهم المراكز العمرانية في شمال الشام وبين حلب وإنطاكية من جهة، وبين حلب وقنسرين وسلمية وتدمر علي حافة صحراء الشام من جهة أخري. كما ضمت أيضا مجموعة من المراكز التجارية الهامة التي كانت تعد نقط هامة لعبور القوافل بين الشام ومصر والجزيرة العربية.[٤]

---

[١] يعقوب الفتري: المصدر السابق، ص ١٥٧ – ١٥٨.

[٢] نهر قويق:هو نهر مدينة حلب ينبع من قرية سبتات، يمر في رسائق حلب ومنها إلي قنسرين ثم إلي المرج الأحمر. أنظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢١٧.

[٣] المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال (القاهرة ٢٠٠٤)، ص ٤٣.

[٤] هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطي، ترجمة أحمد محمد رضا، (القاهرة ١٩٨٥م) ج١ ص٥٩، محمد مرسي الشيخ: الإمارات العربية ص ٤٠،

الغطاء الغابي ببلاد الشام عصر الحروب الصليبية

حسب مشاهدات الرحالة وكتابات المؤرخين

من خلال تحليلنا لتضاريس بلاد الشام وطبيعة تربتها ومناخها، نلاحظ أن بلاد الشام وهبت التربة الخصبة، والموارد المائية المتنوعة، لذلك كست الأشجار والنخيل والمزروعات معظم أراضيها. فقد كانت كل إشارات الرحالة والمؤرخين تؤكد ثراء بلاد الشام ورفاهية أهلها "، وعظم ثرواتها فالأراضي خصبة والمياه وفيرة والأشجار وارقة متعددة ".[١] كما أمدنا الرحالة المسلمون والغربيون، بالعديد من الإشارات والمعلومات القيمة عن الغطاء النباتي والغابي في بلاد الشام، عصر الحروب الصليبية، وخاصة في القرن الثاني عشر الميلادي، حيث كانت معلوماتهم علي جانب كبير من الأهمية، فيذكر أنه من أشهر أحراج (غابات) بلاد الشام، غابة عسقلان وغابة أرسوف وحرج القنطرة، وفي أطراف حلب كانت توجد عدة غابات يقال لها الزور، وأيضا وجدت غابات لبنان وعكا وجبال الناصرية.[٢]

وفي وصف الرحالة بورشارد لجبل لبنان يذكر انه جبل مرتفع ويقل ارتفاعه كلما اقتربنا من البحر، وكما يذكر انه توجد أودية خصبة تتخلل كل من جبل لبنان وسلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية، والمستغلة جيدا بالزراعة ومحاطة جيدا بالمروج الخضراء وكروم العنب والحدائق والبساتين.[٣] أما الرحالة ثيودريش فيضيف أن جبل لبنان هو الجبل الوحيد المحاط بأشجار الأرز والسرو والصنوبر وأشجار السوعر.[٤] وهي أشجار لها أهميتها الاقتصادية كما سنري فيما بعد.

---

[١] ثيودريش:وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد البيشاوي، رياض شاهين،ط١،(عمان، ٢٠٠٣) ص ٤٢.

[٢] زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج (بيروت، ١٩٥٧م)، ص ٩٦.

[٣] أبن جبير: رحلة بن جبير، ص ٢٣٩، بورشارد من دير جبل صهيون، وصف الأراضي المقدسة، ص ٦٦.

[٤] تاريخ الرحلة إلي بيت المقدس، ص ٥٩، زكي النقاش: المرجع السابق، ص ٩٦.

وإذا كنا تحدثنا عن غابات جبل لبنان وأهم الأشجار الموجودة به، فيذكر البعض أنه توجد أنواع كثيرة من الأشجار غير المثمرة في الغابات المتفرقة ببلاد الشام، وأهم هذه الأشجار: أشجار البلسم وأشجار الأرز اللبنانية والتي تتميز بطولها الفارع والتي لا تحمل أي نوع من الثمار، لكنه أخشابها الجيدة لها استخدامات عدة،[١] في العديد من الأغراض التي سوف نتحدث عنها في حينها.

بقي أن نتحدث عن أن الغابات أحيانا تشكل حدوداً طبيعية فاصلة بين بعض الأقاليم ببلاد الشام، وفي ذلك نستدل بما ذكر عن وجود غابة من الأشجار تفصل بين حلب واللاذقية، وتسمي هذه الغابة باسم " الفرنلق" وتتميز بكثافة أشجارها، والتي من أهمها أشجار الصنوبر والغار والدلب والكرز البري،[٢] ومما لاشك فيه، أن مثل هذه الغابات تبدو أهميتها الكبيرة ، فقد شكلت بذلك حداً طبيعياً صعب الاختراق من الناحية العسكرية، وخاصة إذا شاركها في الحدود الطبيعية الأخرى جبال مرتفعة.[٣]

ويذكر أيضا عن أهمية الغطاء الغابي في هذه المرحلة ، أن الغابات كانت تمثل حماية للجيوش المحاربة، لأنها تمثل ساتراً بينها وبين العدو، وهذا ما حدث في معركة أرسوف الشهيرة بين المسلمين والصليبيين بقيادة ريتشارد قلب الأسد في أوائل شهر يوليو ١١٩١م، فيذكر أن صلاح الدين أختار مكان المعركة التي جعل لها أن تكون بالقرب من أرسوف، حيث انحدار التلال بلطف شديد إلي الشاطيء، الذي يحيط به الغابات الكثيفة من شجر البلوط، والتي كانت تعد حامية له ولقواته لعدة أميال من الشاطيء، كما أوجدت هذه الغابات أيضاً مساحة كافية لأداء الفرسان تدريباتهم استعدادا للمعركة.[٤] " ويمكن للغابات أيضا أن تكون ملجأ للهروب من الموت والفرار من وجه العدو، وخاصة من جانب الجنود المهزومين خوفاً من الموت، كما حدث في معركة

---

(١) محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون في العصور الوسطي، ط١ (القاهرة، ٢٠٠٤م)، ص ٦٨.

(٢) www.sarytourism.org.

(٣) محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون، ص ٦٨.

(٤) لين بول: صلاح الدين وسقوط بيت المقدس، ص ٢٥٥، رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، (إسكندرية، ١٩٩٨م) ج٣، ص٩٣-٩٥

أرسوف أيضا، والتي انتهت بهزيمة كبيرة للمسلمين، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ المجهول لحياة الملك ريتشارد قائلاً:[١] " لما زاد بأس رجالنا، فتفرق العدو علي ظهور جيادهم، ولجأوا إلي الغابات يلتمسون فيها المخبأ الذي يقيهم غائلة ألردي.." .

ويؤكد الرحالة ناصر خسرو بأن مدينة حيفا الواقعة علي شاطيء البحر، كانت مليئة بغابات النخيل وغيرها من الأشجار، وأيضا بوجود أشجار الصنوبر في غابات لبنان الداخلية ً.[٢] ومن أهم الأشجار التي انتشرت في غابات بلاد الشام أشجار اللبخ Lebekوالتي تتميز بالصلابة، وأشجار السنط والأرز والبلوط والشربين الفارع الطول، والتي انتشرت في مناطق متفرقة في بلاد الشام، خاصة في جبال لبنان وحول بيت المقدس، [٣] وفي جبل طابور[٤] حيث انتشرت علي منحدراته غابات واسعة مليئة بأشجار الأخشاب من جميع الأنواع، [٥]نذكر منها أشجار البلوط التي نمت بكثرة في غابات السفوح الغربية لهذا الجبل. [٦] فليس من شك أن وفرة هذه الغابات ، أوجد نشاطاً اقتصادياً وافراً لأهل الشام وعدد من فرص عملهم ، وأوجد نوعاً من التميز والمهارة في كثير من المجالات، كما هوحال أهل صيدا حيث يذكر البعض أن أهل صيدا [٧]كانت لهم شهرة كبيرة في مجال الأخشاب، وفي تقطيعها وتصنيعها، حيث كانت مهنة الكثير من أهلها.[٨]

---

[١] المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، صلاح الدين وريتشارد، ترجمة حسن حبشي، (القاهرة، ٢٠٠)، ج٢، ص٨٦، لين بول: المرجع السابق، ٢٦٢.

[٢] سفر نامة، ترجمة يحيي الخشاب، ط٣، (بيروت، ١٩٨٣م)، ص ١٨، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٣٢.

[٣] ثيودريش: المصدر السابق، ص ٥٩.

[٤] جبل طابور: يوجد بإقليم الجليل شرقي مدينة الناصرة علي بعد أربعة أميال منها. دانيال الراهب: المصدر السابق، هامش ٥.

[٥] دانيال الراهب: وصف الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي، (عمان، ٢٠٠٣م)، ص ٩٩.

[٦] لين بول: صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس، ص ١٤٩.

[٧] [٢٨] صيدا: تقع علي ساحل البحر بينها وبين مشغرا ٢٤ ميلاً وبين دمشق ٦٦ ميلاً. أنظر أبو الفدا: المصدر السابق، ص ٢٤٩.

[٨] يعقوب الفتري: تاريخ بيت المقدس، ص ٣٤.

والى جانب أشجار الصنوبر، كست أيضاً أشجار البلوط أجزاء متفرقة من المنطقة، وقد أولاها الفرسان اهتماماً خاصاً لاعتقادهم بأنها شجرة مباركة ومقدسة، واعتقدوا أن الفارس الذي يحمل لقطعة من شجرة البلوط لا يتعثر جواده أبداً ولا ينهزم.[١] ومن المعروف أن أشجار البلوط من الأشجار المعمرة فقد يصل عمرها أحياناً إلى ألف عام تقريباً، ومن جذورها تنمو أشجار جديدة. [٢] ويضيف الرحالة دانيال الراهب ويبدي عجبه من تلك الشجرة التي توجهت ذلك الجبل لعدة قرون ولم تتعفن أو تتلف، وظلت باقية ثابتة محمية من الله كما لو كانت زرعت للتو.[٣]

وثمة رأي آخر يذكره المؤرخ المجهول لحياة الملك ريتشارد، فهو يعتبر أن النبات والأشجار أحيانا ما تكون عائقاً لحركة الجيوش، فيذكر أن الطريق لم يكن ميسراً من حيفا إلي كفر ناعوم،[*] حيث كانت أشجار الحسك من أشد العوائق التي

اعترضت طريقهم في الزحف، إلي جانب الكثير من النباتات والحشائش النامية بوفرة " والتي كانت تصفع وجوه المشاة من جنودنا فلاقوا أمراً عسيراً ".[٤]

وبالحديث عن مناطق الشام الجنوبية، نذكر أن الغابات كانت تغطي مساحات ليست قليلة من أراضي بلاد الشام، وخاصة منطقة الخليل بالجنوب، كما أن أشجار الصنوبر كانت تكسو التلال الواقعة شمال المدينة، وذلك على الجهة اليسرى من الطريق المؤدي إلى بيت المقدس، وهذه الأشجار كان يتم تقطيعها وحملها على الجمال إلى المدينة المقدسة ويتضح من خلال ذلك أن غابات الخليل كانت تشكل مخزوناً طبيعياً من

---

[١] يوحنا فورزبورغ: وصف الأراضي المقدسة،ت سعيد البيشاوي(عمان١٩٩٧) ص ٩٨، ثيودريش: المصدر السابق، ص١١٥.

[٢] يوحنا فورزبورغ:المصدر السابق، ص ٩٨.

[٣] وصف الأراضي المقدسة، ص ٧٨.

[*] كفر ناحوم (ناعوم) تبعد عن طبرية نحو خمسة عشر كيلومتر باتجاه الشمال الشرقي، كما تبعد نحو أربعة كيلومترات عن مصب نهر الأردن ببحيرة طبرية، وكان كفر ناحوم مركزاً لجباية الأموال في العصر الروماني أنظر بوشارد: المصدرالسابق، ص ٧٢، هامش(٢).

[٤] ((٣٣) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، صلاح الدين وريتشارد، ج٢، ص٦٤-٧٠.

الأخشاب، ليس فقط للاستهلاك المحلي، وإنما من أجل استغلالها في جهات أخرى مثل بيت المقدس وغيرها من المناطق التي تقوم عليها الصناعات الخشبية.[1]

وبالنهاية يأتي حديثنا عن غرائب الأشجار وطرائف الثمار في بلاد الشام، والتي تعرض لها المؤرخون والرحالة، فيذكر المؤرخ الصليبي فوشيه الشارتري – وكان مرافقاً للحملة الصليبية الأولي – بعدما رأي بعض الأشجار تحمل ثمراً غريباً، قال: [2]"جمعت بعضاً منها آملاً أن اعرف ما هي ؟ وعندما كسرت قشرتها وجدت بداخلها مسحوقاً أسود، وتصاعد منه دخانا ". وقد عرف أنه تفاح سدوم أو تفاح البحر الميت.

دور الغطاء الغابي في تحقيق الصليبيين لأهدافهم من جهة، وفي حركة المقاومة الشامية لهم من جهة أخري

تمكن الصليبيون الذين قدموا من غرب أوربا رافعين راية الصليب كشعار لهم في انتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، وإذا نظرنا إلي حقيقة الأمر فقد حركت هؤلاء الصليبيين العديد من الدوافع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية، وتمكنوا من خلال استغلالهم لحالة التشرزم السياسي والتناحر المذهبي الذي كان عليه المسلمون في بلاد الشام آنذاك، وتمكنوا من تحقيق نجاحات كبيرة لهم، وأقاموا ثلاثة إمارات صليبية إضافة إلي مملكة بيت المقدس الصليبية، وذلك بداية من إمارة الرها في أعالي العراق، مروراً بإنطاكية ثم إمارة طرابلس. فليس من شك أن ملوك وأمراء أوربا الغربية وشعوبها، الذين لم يرافقوا الحملة الصليبية الأولي، شعروا بارتياح كبير لما حققه أقرانهم الذين شاركوا الحملة، لذلك لم يتوقفوا طوال القرنيين الثاني عشر والثالث عشر، عن تقديم المساعدة والعون المادي والبشري، من أجل دعم الكيان الصليبي في بلاد الشام، الذي عمل بدوره علي استنزاف خيرات المنطقة لحساب وطنهم الأم في أوربا. [3]

---

[1] سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ط١، (إسكندرية، ١٩٩٠) ص ٤٤٠.

[2] تاريخ الحملة إلي القدس، ترجمة زياد العسلي (دار الشروق، ١٩٩٠)، هامش٢٩ ص ١٠٩

[3] محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون، ص ١٥.

وبالرغم من كل ذلك، كان لا يمكن للصمت والتشرزم الإسلامي أن يستمر، فقد برزت صور خالدة خلال هذه الفترة، رفضت المهانة والاستكانة، بدأت تجمع كلمة الأمة من أقصي بلاد الشام حتي مصر، تحت قيادة إسلامية واحدة، سطرت صفحة ناصعة في تاريخ الإسلام، فقد قاومت واستبسلت وتمكنت من تحقيق النصر تلو الأخر، حتي تكللت جهود هؤلاء الزعماء وشعوب المنطقة، من دحر الغزاة الصليبيين من بلاد الشام، في نهاية المطاف علي يد السلطان المملوكي الاشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩١م.[١]

ومهما يكن من أمر، فقد قطع الصليبيون المسافات الطويلة من بلادهم حتي وصلوا بلاد الشام، الأمر الذي استلزم عليهم الاهتمام بكل ما يقع تحت أيديهم من موارد للاستفادة منه واستغلاله لخدمتهم، لذلك فقد أبدي الصليبيون اهتماماً بالغابات وأشجارها، منذ أن وطئت أقدامهم بلاد الشام، فقد وفرت لهم الكثير مما يحتاجونه من مؤن لقواتهم ودوابهم، كما وفرت لهم المناطق الآمنة لالتقاط الأنفاس بعد كل مرحلة يقطعونها، كما وفرت لهم الحماية من حرارة الشمس الحارقة التي لم يألفوها بالغرب الأوربي. ومما يجدر ذكره أننا ليس بصدد ذكر تفاصيل أحداث الحملة الصليبية الأولي الحربية أو السياسية، ولكن ما نريد إبرازه فقط هو كيفية استفادة الصليبيين من الغطاء الغابي في بلاد الشام، لتحقيق أهدافهم للوصول إلي بيت المقدس بأقل جهد وخسارة، وكذلك الدور الذي حاولت فيه المقاومة الشامية استغلال نفس هذا الغطاء الغابي أيضاً في الدفاع عن أراضيها، وتكبيد المحتلين أكبر خسائر لإجبارهم علي الرحيل.

فيذكر المؤرخون أن الصليبين وصلوا في يوم ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧م أمام إنطاكية، وأحكموا حصارها خمسة عشر يوماً،[٢] فيذكر المؤرخون، أنه أثناء

---

[١] عاشور: الحركة الصليبية، ط٤(القاهرة، ١٩٨٦)،ج٢،ص٩٣٥-٩٣٦، قاسم عبده قاسم، علي السيد علي:الأيوبيين والمماليك، ص ١٨١، محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية، السياسة – المياه – العقيدة، (القاهرة، ٢٠٠١) ص٥٤.

[٢] المؤرخ المجهول:أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي(القاهرة، ١٩٥٨) ص٤٩-٥٠.

الحصار لجأنا إلي المناطق المجاورة حيث عثرنا علي الكروم في كل مكان، والحفر المليئة بالحبوب، وأشجار التفاح التي كانت ناضجة وحان وقت قطافها.[١] فالواضح هنا أنه منذ بداية الرحلة اعتمد الصليبيون علي الأشجار، وما تجود عليهم به من ثمار وظلال وأمان وأخشاب تساعدهم علي تشييد الآت الحصار الخاصة بهم كما سنري فيما بعد. ولكن عندما تحول حال الصليبين وأصبحوا محاصرين داخل مدينة إنطاكية من قبل القائد التركي المسلم كربوغا.[٢] حدثت مجاعة قاسية للصليبين، اضطروا فيها إلي أكل لحم الخيل والحمير، وكانوا يقومون بطهي أوراق التين والكروم لأكلها.[٣]

ويذكر أحد المؤرخين صورة أخري لاستخدام المسلمين الغطاء النباتي والغابي أثناء حصار الصليبين لإنطاكية، ذكر أن قلج أرسلان (أمير نيقية) قدم بقواته لمساندة قوات كربوغا المحاصرة للصليبين في إنطاكية، حيث هاجم مؤخرة الجيش الصليبي التي كانت تحت قيادة بوهيمند النورماندي، وكانت من القوة بالشكل الذي جعل الدفاعات الصليبية تنهار، لولا المساعدات الصليبية الاخري التي انهالت عليهم، مما شجع الصليبيون وطاردوا قوات قلج ارسلان، التي لجأت إلي إضرام النيران في الزروع والأشجار والحشائش، فتأججت النيران وغطت المنطقة سحابة من دخان كثيف خانق، فحالت هذه القتامة السوداء بين جيشنا ومطاردة العدو، وقد اتخذ قلج ارسلان من هذا الدخان ستاراً، استخدمه بمهارة فائقة في مهاجمة القوات الصليبية، " وفتك بطائفة كبيرة من مشاتنا، أما الفرسان فقد أنقذهم سرعة جري الفرسان ". [٤]

---

[١] بطرس توديبود: تاريخ الرحلة إلي بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، (أسكندرية، ١٩٩٩م)، ص ١٣٥، رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص٣٤٣.

[٢] وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، (القاهرة، ١٩٩١م)، ج١، ص ٣٨٧.

[٣] توديبود: المصدر السابق، ص ٢٢٤، ريموند أجيل: المصدر السابق، ص ١٤١، أبن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠ ، ص ١٦٤-١٦٥، رانسيمان: المرجع السابق، ج١، ص ٣٤٣.

[٤] وليم الصوري: المصدر السابق، ج١، ص ٤١٢-٤١٣.

علي أية حال، استحوذ الصليبيون علي إنطاكية، واستقرت لهم الأمور بها،[1] وهنا قام جودفري بزيارة خاطفة لأخية بلدوين، الذي كان نجح في تأسيس إمارة الرها الصليبية، [2] ويذكر أنه أثناء عودته إلي إنطاكية وعلي بعد نحو خمسة أو ستة أميال منها، وقع نظره علي بقعة خضراء جملية كثة الأشجار يجري بجوارها نبع يتدفق منه المياه العذبة، فترجل جودفري عن جواده، ليتناول طعامه مع أصدقائه في هذا المكان الساحر، وبينما هم كذلك مشغولين بالطعام والتسلية، إذا بكوكبة من فرسان المسلمين تبرز لهم فجأة من بين هذه الأشجار، وهم مدججون بالسلاح، لكنهم أصابوا هدفهم فلم يتمكنوا من إلحاق الأذى بالأمير الصليبي" الذي نجح في الوثوب علي صهوة جواده وخرج منتصراً ". [3] وهذا يفسر لنا أن أهالي الشام منذ بداية هذه ألازمة التي تعرضت لها بلادهم لم يتوانوا عن عمل ما يستطيعون فعله من مهاجمة الصليبين مستغلين كل إمكانياتهم.

علي أية حال، عاد جودفري وانضم إلي القوات الزاحفة إلي بيت المقدس بقيادة الأمير ريموند، وقد وصلت هذه القوات إلي معرة النعمان، وحاولوا اقتحامها لكنهم فشلوا فقرروا حصارها، واستمر الحصار أربعة عشر يوماً، كان لابد من البحث في المنطقة عن الأخشاب لعمل أبراج الاقتحام، [4] ويلاحظ توافر الأخشاب بتلك المنطقة، مما سهل علي ريموند ومهندسيه من سرعة بناء الأبراج، التي مكنتهم من اقتحام المدينة في٢١ ديسمبر، وبعدها أعلن ريموند تحرك الحملة إلي بيت المقدس [5] بعد أن ظلت

---

[1] المؤرخ المجهول:أعمال الفرنجة، ص ٦٧، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص ١٦٥، الناصر صلاح الدين، سلسلة أعلام العرب، العدد٤١، (القاهرة، ١٩٦٥م) ص٢٢.

[2] قام بلدوين والذين خلفوه بطرد المسلمين منها، وجعلوا جميع مناطق الرها تحت سيطرتهم، وهو إقليم يمتاز بكثرة الغابات والمراعي والأنهار. أنظر، أبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٨٩، يعقوب الفتري: تاريخ بيت المقدس،٣٨، علية عبد السميع الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، (القاهرة، ٢٠٠١م) ص٥٩ وما بعدها.

[3] وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص ٣٧.

[4] رانسيمان: المرجع السابق، ج١، ص ٣٩٦.

[5] توديبود: الرحلة إلي بيت المقدس، ص٢٩٣.

قرابة خمسة عشر شهراً في شمال الشام (من أكتوبر ١٠٩٧حتي ديسمبر ١٠٩٨م)،[١]ويذكر البعض أنه في الوقت الذي اتجه فيه جزء من الجيش الصليبي لحصار مدينة عرقة، [٢]اتجه فريق آخر نحو طرسوس [٣] وذلك في السابع عشر من فبراير، ويذكر أن أهل طرسوس نهضوا للدفاع عنها في جمع غفير، واشتدت المعارك بين الطرفين وعندما جاء المساء ارتدا عند أحدي النواحي ونصبا خياميهما عندها، وهنا يبدو الذكاء في الفكر القيادي، قي استغلال الغابات وأشجارها ، فقد أحضر الصليبيون الأخشاب من الغابات المحيطة وأشعلوا النيران في هذه الأخشاب في مواضع متعددة، أظهرت للعدو كما لو كان الجيش الصليبي كله موجود بطرسوس، فاستولي الذعر علي الأهالي المدافعين، وتسربوا في الظلام هاربين وتركوا المدينة بما فيها من متاع وتركوا الميناء.[٤] وقد أدي استيلاء الصليبين علي ميناء طرسوس إلي سهولة تموينهم عن طريق السفن الإيطالية.[٥] وهذا يؤكد ما ذكرناه من قبل عن استغلال الصليبين لأشجار الغابات وأخشابها في أكثر من موضع كانت سبباً في انتصارها.

ومهما يكن من أمر، وصلت القوات الصليبية بيروت والمشهورة بأشجارها وغاباتها وأنهارها وجداولها ومنتجاتها.[٦] يذكر أنه بدأت الاتصالات بين الصليبين وأمراء البيوت العربية الذين أدركوا خطورة الموقف، لعدم وجود قوة إسلامية كبري تحميهم من هذا الخطر في ذلك الوقت، فآثروا إتباع سياسة مرنة استهدفت الاتفاق مع الصليبين، وقبول ما يقدموه من عروض.[٧] لذلك يلاحظ أن أهل بيروت خافوا علي

---

[١] سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص١٧٥

[٢] عرقة: بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ .أنظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ،ج٤، ص ١٠٩.

[٣] طرسوس هي بلدة من سواحل الشام وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص. أنظر ، ياقوت الحموي : المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٩

[٤] المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص١١٠.

[٥] سعيد عاشور: المرجع السابق، ج١، ص١٨١

[٦] يعقوب الفتري: المصدر السابق، ص ٣٤.

[٧] سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص ١٧٩.

تدمير حدائقهم وأشجارهم وما عليها من ثمار، فسارع حاكمها بتقديم الهدايا والسماح للصليبين بالمرور عبر أراضيهم شريطة عدم الأضرار بالحدائق والبساتين والمحاصيل، ووافق الصليبيون وتركوها متجهين إلي صيدا.[١] والتي وصلوها في العشرين من مايو، وعندما عسكر الصليبيون علي ضفاف نهر الليطاني حيث الغابات الكثيفة وأشجار الفاكهة والبساتين كروم العنب،[٢] وعندما خرجت قوات صيدا لتدافع عن مدينتها، تمكنت القوات الصليبية من صد هجومها، وكان الجزاء نهب الحدائق وتقطيع الأشجار التي بضواحيها.[٣] كنوع من العقاب للدفاع عن الأرض وقد تكرر هذا المشهد كثير كما ذكر المؤرخون.

وعلي أية حال، تابعت القوات الصليبية سيرها تجاه بيت المقدس، متخذين الطريق الساحلي لأنه أقصر الطرق وآمنها.[٤] ، بالرغم من أن الطريق الساحلي كان كثير الأشواك والإعشاب والنباتات المتشابكة، التي تعوق الزحف وخاصة لجنود المشاة.[٥] ومع كل هذا فقد واصلوا السير في الطريق الساحلي وقبل أن تصل القوات صور مروا علي قلعة "أسكندرونة" [٦] استفاد الصليبيون من الغطاء النباتي والغابي بالمنطقة، وتركوا لجنودهم ودوابهم العنان لترعي وتأكل ما لذ وطاب في هذه المنطقة.[٧] وفي صور بادرت القوات الصليبية بإقامة معسكراتهم علي مقربة من " نبع الجنان " ويعد من أعاجيب الدنيا في زمانه، فأمضي الصليبيون ليلتهم، وسط بساتينه الغناء الفسيحة والتي

---

(١) المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص ١١٤، رانسيمان: المرجع السابق، ج١، ص ٤١٨.

(٢) يعقوب الفتري: المصدر السابق، ص ٣٤، بورشارد: المصدر السابق، ص٤٨

(٣) أبن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان،(بيروت،١٩٦٨)ج٢، ص٢١٤، رانسيمان: المرجع السابق، ج١،ص٤١٨.

(٤) وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص٦٢

(٥) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج٣، ص ٧٠.

(٦) يذكر أن الذي شيدها هو الاسكندر المقدوني، عندما كان يحاصر مدينة صور.أنظر، بورشارد: المصدر السابق، ص٤١

(٧) بورشارد : المصدر السابق ، ص ٤١ ، يعقوب الفتري : المصدر السابق ، ص ٥٢.

تفيض بكل ما تشتهي الأنفس من الطيبات.[١] ولاشك أن كل هذه الظروف التي عاشتها القوات الصليبية أثناء تحركاتها، أمدتها بكثير من القوة وسهلت عليها مهمتها.

عبر الصليبيون الممر المسمي " سلم صور" ومرتفعات الناقورة في٢٤ من مايو وأصبحوا علي مشارف عكا، وهي مدينة حصينة مثلثة الشكل ضلعان منها يواجهان البحر أما الثالث فكان يواجه السهل المحيط بها والذي يمتاز بخصوبته، حيث كانت كل أراضيه مزروعة بالأشجار المثمرة والكروم،[٢] وقد حذا حاكم عكا حذو حكام بيروت وحمص وطرابلس وشيزر فافتدي المزارع الخصبة والحاصلات وذلك بإمداد القوات الصليبية ببعضها مقابل الأمان بعدم المساس بممتلكات الأهالي من الأشجار المثمرة والمحاصيل.[٣]

ويمكن القول أنه ، ليس من شك في أن هذا الغطاء النباتي والغابي يسر للقوات الصليبية مواصلة طريقها إلي بيت المقدس، مزودة بكل احتياجاتها من طعام ومؤن للقوات والدواب، والمؤكد أن هذا الغطاء وفر لهم الراحة في ظلاله وبين مناظره الخلابة، الأمر الذي جعل قادتهم شديدي التركيز، وكانت قراراتهم صائبة سواء في إعداد خططهم العسكرية، أو في التعامل مع حكام وأهالي المدن التي يمرون عليها.

وصلت القوات الصليبية مدينة حيفا التي تشتهر أيضا بالثراء والجمال، خاصة بأشجار النخيل المثمرة علي طول ساحل البحر المتوسط، كما نعمت بالبساتين كثيفة الأشجار.[٤] ثم تابعوا زحفهم حتي وصلوا سفح جبل الكرمل، الذي يقع بين حيفا والجزء الشمالي من سلسلة جبال نابلس، و تغطي قمته الأعشاب والأشجار القصيرة، حيث تعطي سحراً فريدا للمكان. [٥] وصل الصليبيون إلي أرسوف والتي تتميز بكثرة قنواتها

---

(١) وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص٦٤-٦٤.

(٢) بورشارد: المصدر السابق، ص٣٩-٤٠، Ludolph: Description Of The Holy Land,P. 50-51.

(٣) تودبود: المصدر السابق، ص٢٩٣، وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص ٢٤٣، رانسيمان: المرجع السابق، ج١، ص٤١٨، السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، (إسكندرية، ١٩٦٧)، ص٥٢-٥٣.

(٤) المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج٢، ص٩٨.

(٥) بورشارد: المصدر السابق، ص ٣٨ هامش (١).

وبساتينها المروية.[١] ومنها اتجهوا إلي قيسارية، [٢] ثم انحرفوا إلي داخل البلاد فوصلوا مدينة الرملة [٣] في الثالث من يونية، فقد وجدوا المدينة دون أهلها الذين فروا إلي عسقلان [٤] عندما علموا بقدوم الصليبين خوفا علي أنفسهم وممتلكاتهم، الأمر الذي رفع معنويات الجنود قبل الاستعداد لمهاجمة بيت المقدس ،[٥] ثم سلك الصليبيون الطريق القديم إلي داخل تلال يهوذا (الضفة الغربية لنهر الأردن) وهي التلال التي تشتهر بزراعة أشجار البلسم،[٦] وهناك وصلهم مبعوثون من مدينة بيت لحم يرحبون بهم. [٧] ذكر دانيال الراهب وآخرين في وصف الأراضي المقدسة: [٨]"أن مدينة أريحا أراضيها خصبة وإنتاجها وفير وتنتشر فيها كميات كبيرة من أشجار النخيل العالية، إلي جانب جميع أشجار الفاكهة الأخرى، إلي جانب العيون العذبة والصافية

أخيراً وصل الزحف الصليبي إلي بيت المقدس، والتي يذكر عنها الرحالة والمؤرخون أنها مدينة مرتفعة فوق هضاب عالية، كما أنها بقاع جدباء خالية تماماً من الماء، واعتماد الأهالي علي مياه الأمطار التي اعتادوا علي تجميعها في صهاريج،[٩]

---

[١] وليم الصوري: المصدر السابق، ح٢، ص٢١٩.

[٢] قيسارية: تقع علي ساحل البحر وتعرف ببرج ستراتون وقد اتخذت أسمها من لقب اوجستوس- قيصر- وأصبحت عاصمةفلسطين الثانية: انظر، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢١٩، أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٣٩

[٣] الرملة:بلدة مشهورة في فلسطين أسماها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، بينها وبين القدس مسيرة يوم.أنظر أبو الفدا:تقويم البلدان، ص٢٤١.

[٤]عسقلان: مدينة في فلسطين علي ساحل البحر بين غزة وبيت جبريل وهي عروس الشام. أنظر ياقوت الحموي: المصدرالسابق، ج٤، ص ١٢٢.

[٥] وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص٢١٩

[٦] فورزبورغ: وصف الأراضي المقدسة، ص ٩٧.

[٧] رانسيمان: المرجع السابق، ج١، ص٢١٩-٢٢٠.

[٨] المصدرالسابق، ص٦٧، سايولف:رحلة سايولف لبيت المقدس، ص٤١، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٠٨.

[٩] الأصطخري: المسالك والممالك ، ص٤٣، وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص٩١-٩٣.

في حين يذكر ثيودريتش انه شاهد التلال والجبال المغطاة بكروم العنب وأشجار الزيتون والتين.[١] علي أية حال، تم فرض الحصار علي المدينة المقدسة من جميع الجهات، ونظراً للتحصينات القوية وأسوار المدينة العالية، اضطر القادة الصليبيون إلي تشيد الأبراج الخشبية اللازمة لاقتحام تلك الأسوار. كان هم الأمراء هو جلب الأخشاب من مناطق بعيدة حددها البعض بنحو ستة أو سبعة أميال في وادي غني بالأشجار الباسقة.[٢] ويذكر أيضا أن الذي قام بهذه المهمة الأسري من رجال المسلمين،[٣] في حين يذكر البعض أنهم من مسلمي القلاع التي تم الاستيلاء عليها وأجبرهم ريموند علي العمل كأقنان، فيذكر " أنك كنت تري خمسين أو ستين رجلاً، يحملون علي أكتافهم دعامة بناء لا يقوي علي جرها أربعة أزواج من الثيران". [٤] في حين يذكر وليم الصوري ،[٥] أنهم حملوها علي ظهور الجمال وعربات النقل. ثم بعثوا في طلب الصناع المهرة الحاذقين في هذا النوع من العمل، ونجحوا بالفعل في بناء ما شاءوا من الأبراج والآت الرمي. ولم يكتف الأمراء بذلك بل سيروا وجهاء القوم، لكي يسيروا بالناس إلي الأماكن الزاخرة بالغابات والأحراش ذات الأشجار القصيرة، لجمع أعواد الخيزران المستوية والفروع اللدنة، وعادوا بها علي ظهور الجياد والحمير، وكل ما لديهم من دواب النقل، ليعملوا منها شباكاً لابد منها لاستكمال أعمال البناءين الهامة للأبراج.[٦] ويذكر البعض أيضا أن الكثير من الصليبين كانوا يتسللون ليلاً أثناء الحصار، لكي يستولون علي القلاع الجبلية والمنازل التي تحيطها الحدائق في سهول الأردن.[٧]

---

(١) المصدر السابق، ص٥٦.

(٢) وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص٩٨.

(٣) Ludolph.V.S: Description of the Holy land (London,1895) , p.40.

(٤) ريموندآجيل:تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ترجمة حسين عطية،ط١،(إسكندرية، ١٩٨٩)،ص٢٤٣، بطرس توديبود: الرحلة إلي بيت المقدس، ص٣١٦.

(٥) المصدر السابق، ج٢، ص٩٨.

(٦) وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص٩٩.

(٧) ريموند آجيل: المصدر السابق، ص ٢٣٥.

تري هل وقفت القوات الإسلامية المدافعة مكتوفة الأيدي أثناء هذا الحصار، فيذكر المؤرخ الصليبيي وليم الصوري:[١] أن القوات الإسلامية المدافعة كانت علي " أتم أهبة الاستعداد لمقابلة المكيدة بالمكيدة، وكانوا يحسنون الاستفادة من كل حيلة تساعدهم علي المقاومة " ويذكر أن المسلمين كانوا بعيدي النظر عندما علموا بقرب وصول الصليبيين بيت المقدس، فقد جلبوا إلي داخل المدينة فروع الأشجار الكبيرة وقطعوها " وراحوا يعملون ما نعمله من هذه الكتل الخشبية فيما وراء الأسوار، آلات تطاول الآتنا في الارتفاع ". وخلاصة الأمر، نجح الصليبيون في اقتحام بيت المقدس في يوم الجمعة ١٥يولية ١٠٩٩ م (٤٩٢هـ) بعد حصار دام " نيفاً وأربعين يوماً " [٢] حيث ارتكبت المذابح الوحشية الرهيبة في أقدس الاماكن به.[٣] وكما ذكرنا أننا ليس بصدد ذكر الأحداث السياسية لإقامة مملكة بيت المقدس الصليبية، لكن ما يهمنا فقط هو إبراز دور الغطاء الغابي علي الأحداث السياسية والاقتصادية للمملكة الوليدة، وللمدافعين من أهل الشام عن بلادهم، واستغلالهم للغطاء الغابي خاصة في أساليب الدفاع والهجوم.

وعلي أية حال، تتابعت المحاولات الإسلامية لصد الخطر الصليبي الذي بدأ ينتشر بالمنطقة، نذكر منها الدور الذي لعبه الغطاء الغابي في هذه المعركة ، ففي الثاني عشر من أغسطس سنة ١٠٩٩م، وفي المنطقة حول عسقلان حيث دارت معركة بين قوات الأفضل بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي وبين الصليبيين، ويذكر أنه عندما اقترب الجيشان أخذت المفاجأة الجيش المصري من قرب وصول الجيش الصليبي، لذلك انهارت قواه سريعاً ولم يتماسك مع سرعة ضربات الجيش الصليبي المنتشي بالانتصارات السابقة، فلم يبد الجيش المصري إلا مقاومة ضئيلة، الأمر الذي أدي إلي هروب الأفضل وقواته إلي

---

(١) الحروب الصليبية: ج٢، ص١٠٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٨٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص١٤٩،ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٧.

(٣) المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة، ص ١١٩- ١٢٠، وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص١٢٤-١٢٨، Michoud: Histoire de Croisades (Paris, 1813), Tom.I,p.444, Richard: The Latin Kingdom of Jerusalem.Tranby Janet Shirly(Holand,1979).P.89-90 ,
عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، (إسكندرية، ١٩٥٨) ص٥٦-58

الغابات المجاورة لمدينة عسقلان، [١] فتسلق العديد من الجنود قمم الأشجار، ممعنين في الفرار وهرباً من سيوف الصليبين، " لكنهم قُذفوا بوابل من سهامنا، وسقطوا إلي حتفهم التعيس ".[٢] في حين أن أبن الأثير يذكر قائلاً:[٣] " لجأ بعض العسكر المصري إلي شجر الجميز، فأحرق الفرنج بعض الشجر حتي هلك من فيه."

وفي يناير من سنة ١١٠٤م، هبت مجموعة من الرجال الشاميين بعمل كمين للقضاء علي الملك الصليبي ومرافقيه، ولكي يقلل المؤرخ وليم الصوري من شأن المقاومة الشامية للصليبيين أطلق عليهم أسم " قطاع الطرق" لكي يقلل من قيمة المقاومة من ناحية، وما أحرزته هذه المجموعة من عمل بارع، كاد أن يودي بحياة الملك الصليبي من جهة أخري، فيذكر وليم الصوري:[٤] "أنه في مكان بين صور القديمة وكفر ناعوم ودورا المعروفة اليوم باسم "المجاز"، خرجت علي الملك الصليبي بلدوين طائفة من قطاع الطرق، كانوا مختفين في احدي الغابات، فهاجمهم الملك حتي اهلك عدد منهم غير قليل وفر بقيتهم، غير أن أحدهم قذف وهو يجري خنجراً، من سوء الطالع أصاب الملك في ظهره، ونفذ من ضلوعه إلي قرب قلبه، وكادت الرمية أن تصبه في مقتل لولا عناية المطببين واستعمالهم المشارط والكي بالنار، مما رد عليه بعض صحته".

---

(١) Michoud: Hist., des Croisades, Tom.,I,P.,447-448 , Stevenson : The Crusades in the East , (Cambridge,1907),P,35

(٢) فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلي القدس، ص ٧٨.

(٣) الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٢٨٦.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٤٣-٢٤٤.

غابات دمشق ودورها في التصدي لهجمات الصليبين عليها سنة ١١٤٨م (٥٤٣هـ) :

من المعروف أن دمشق هي مدينة الشام الرئيسية بين مدن الشرق من حيث الحجم والسكان، وهي رأس الشام ذات المياه الوفيرة، [١] حيث تروي السهول كل أراضيها جاعلة منها منطقة خصبة مليئة بالأشجار من كافة الأنواع، [٢] وقد حرك الموقع والثروات التي تنعم بها دمشق، لعاب الصليبين للسيطرة عليها وضمها إلي مملكتهم، من أجل ذلك استغل الصليبيون وجود الجيش الفرنسي والجيش الألماني، واقنعوا عاهليهما بمشاركتهما في الزحف والسيطرة علي دمشق أكبر مدن الشام ثراءً، وقد رحب الإمبراطور الألماني والملك الفرنسي بالزحف علي دمشق، فيما عرف بالحملة الصليبية الثانية أواخر مايو ١١٤٨م(٥٤٣هـ). ونحن ليس بصدد ذكر أحداث هذه الحملة، ولكن سوف يقتصر الحديث علي الدور الذي لعبه الغطاء الغابي في أحداث هذه الحملة.

فقد تميزت دمشق بأنها كانت محاطة بغابات وبساتين ذات أشجار عالية، والتي يعزي إليها الفضل الكبير في حمايتها علي مر العصور، فكما ذكر البعض " فإن أمكن الاستيلاء علي هذه البساتين لم يعد شك في سهولة الاستيلاء علي المدينة ذاتها ". [٣] فقد كانت البساتين ذات الأشجار الكثيفة، والممرات الضيقة المبنية بأسوار من الطين، والحشائش الطويلة التي نمت أسفل أشجارها، والتي امتدت لنحو خمسة أميال طولاً وعرضاً، كل هذا كون لها حماية جيدة للمدينة، وجعلها أشبه بغابات كثيفة تحيط بالمدينة من كل جانب.[٤] ويذكر البعض بأن أهل دمشق شيدوا بنايات شاهقة الارتفاع هنا وهناك في داخل المدينة فأصبحت هذه البنايات والمدينة كلها " وكأنها جزر حجرية وسط هذا البحر الأخضر".[٥]

---

[١] وليم الصوري: المصدر السابق، ج٣، ص ٣٠٩. ، يعقوب الفتري: تاريخ بيت المقدس، ص ٥٧

[٢] يعقوب الفتري: المصدر السابق، ص ٥٧، لين بول: صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس، ص ١٦٠

[٣] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣، ص٣٠٨.

[٤] وليم الصوري: المصدر السابق، ج٣، ص٣١٠.

[٥] لين بول: المرجع السابق، ص ٨٠

وقد ذكر القاضي الفاضل في وصفه لمدينة دمشق قائلاً: [١]" فلما قربت من بساتينها، ولاح لي فيح ميادينها، وتوسطت جنة واديها، ورأيت ما أبدع الله فيها، سمعت عند ذلك حماماً يغرد، وهزازاً يشدد ويردد، وقمرياً ينوح وبلبلاً بأشجانه يبوح ".

وعلي أية حال، فقد اتخذت القوات الغازية قرارها في حصار دمشق، بالبدء في الاستيلاء علي غاباتها وبساتينها المحيطة بها، وكان اختراق هذه الأشجار والطرق الضيقة الملتوية بداخلها صعب جداً، ومع ذلك أختار الصليبيون وحلفائهم هذا الطريق الوعر، لما رآه قادتهم أنه سيوفر للجنود الماء والثمار.[٢] فلم تكن الخطورة تكمن فقط في الأشجار نفسها ووعورة طرقها، ولكن تعرض الصليبيون إلي جانب ذلك إلي أكمنة نصبها الدماشقة في الأيكات، حيث دارت عدة اشتباكات بين هذه الأشجار، خلفت الكثير من قتلي للصليبيين، لم يقتصر علي ذلك فقط بل أن أهل البلدة أنفسهم تربصوا للصليبيين وسط الشعاب للانقضاض عليهم، ولقطع الطريق أمام تقدمهم، [٣] كما أستغل الأهالي والمدافعين عن المدينة نفسها المنازل العالية داخل المدينة، ليكيلوا علي الصليبيين وابل من السهام، وأصبحت قوية التأثير والخطورة، [٤] حيث أصبحت القوات الصليبية يترقبون الموت من حيث لا يحتسبون. [٥] تابع الصليبيون اختراقهم لتلك الغابات والبساتين، وشرعوا في قطع الكثير من الأشجار للتحصن بها، وأدرك الجميع أن الصليبيين سوف يتقدمون من خلال هذه الأشجار إلي محاصرة المدينة. [٦] ويذكر أبن القلانسي[٧]: " أستظهر الكفار علي المسلمين بكثرة الأعداد والعدد، وغلبوا علي

---

(١) أبوشامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص٥٩

(٢) Grousset : Histoire des et du Royaum France de Jerusalem,Tom.,II,P.25
Perry: " The Second Crousades" In Setton: Hist., of the Crusades,Vol.II(Philadelphia,1955)P. 257

(٣) وليم الصوري: المصدر السابق، ج٣، ص٣١١.

(٤) Michaud : Histoire des Croisades,Tom.,I,p.401, Grousset:op.cit.,tom.,II,p.257

(٥) وليم الصوري: المصدر السابق والصفحة، لين بول: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٦) وليم الصوري: المصدر السابق، ص ٣١٢،زبيدة محمد عطا:الشرق الاسلامي والدولة البيزنطية،ط٢(القاهرة،١٩٩٤)ص٥١.

(٧) ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٦٣.

الماء وانتشروا في البساتين وخيموا فيها، وقربوا من البلد "، ويذكر أيضا أنه عندما اقترب الصليبيون من المدينة، وتوقعوا سقوطها بأيديهم، [1]لذلك قرر الأهالي منع الصليبيين من اجتياح المدينة بأي ثمن فقرروا سد جميع الشوارع والطرقات التي تؤدي إلي داخل المدينة بجذوع الأشجار الضخمة وفارعة الطول، ومع شدة المقاومة وحرارة الطقس وشعور الصليبيين بالعطش، اتجهت القوات ناحية النهر، فوجدوا جيشاً إسلاميا متأهباً، [2] الأمر الذي جعلهم يغيرون من خططهم ويتركوا الأشجار التي اعتصموا فيها من قبل، لكنهم سرعان ما أتضح لهم أن هذا الموضع الجديد حرمهم من أشياء ضرورية، لذلك بدأت المؤن تقل وحاجتهم للماء تزداد، [3]الأمر الذي أدي بالنهاية إلي فك حصارهم والانسحاب من حيث أتوا خائبين.[4] وهذا الدور يعد من الأدوار الهامة للغطاء الغابي في هذه الفترة.

ومن خلال الأحداث السابقة يمكن القول أن الغابات يمكنها أن تشكل خطراً كبيراً علي القوات إذا توغلت فيها، فيطالعنا المؤرخ المجهول بصورة أخري من صور استخدام الغطاء الغابي ذاكراً، أنه أثناء تحرك القوات الصليبية تجاه أرسوف [5] قادماً من نهر الملح، وذلك في الخامس من سبتمبر سنة ١١٩١م، سرت شائعة بالجيش الصليبي مفادها أن المسلمين نصبوا لهم كميناً في غابة أرسوف، وان المسلمين سوف يشعلوا النار في الغابة لكي يحولوا بين الجيش الصليبي ونجاحه في المسير خلال

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٣٠، أبن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج١، ص١١٢.

(٢) Michaud : Histoire des Croisades,Tom.,I,p.403, Grousset: op.cit.,tom.,II,p.260
رانسيمان: المرجع السابق، ج٢، ص٣٢٧

(٣) وليم الصوري: المصدر السابق، ص ٣١٣-٣١٦، لين بول: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٣٠-١٣١، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٣٠١، وليم الصوري: المصدر السابق، ص٣٢٠.Michaud: Histoire des Croisades, Tom..I,p.403، زبيدة محمد عطا:المرجع السابق، ص٥١.

(٥) أرسوف هي مدينة علي ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا.أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٩٢، أبو الفدا:تقويم البلدان، ص٢٣٩

الغابة، ويذكر أن الصليبين لم يلتفتوا إلي هذه الشائعة، ومروا من نفس الموضع الذي كان الكمين يترصدهم.[١]

وفي معركة ارسوف، والتي دارت بين القوات الصليبية بقيادة ريتشارد قلب الأسد، والجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين الأيوبي في أوائل يوليو ١١٩١م، وأثناء سير العمليات الحربية، وعندما شعرت القوات الإسلامية بتفوق القوات الصليبية عليها، لجأ الكثير من الجنود إلي الغابات، طالبين النجاة بالتخفي فيها، هرباً من سيوف الصليبيين، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ المجهول لحياة الملك ريتشارد قائلاً: [٢] " لما زاد بأس رجالنا، فتفرق العدو علي ظهور جيادهم، ولجأوا إلي الغابات يلتمسون فيها المخبأ الذي يقيهم غائلة ألردي.".

وعلي أية حال، فقد كان من الطبيعي أن تعيق العمليات العسكرية حركة تقدم النشاط الاقتصادي الصليبي، كما أن العمليات العسكرية المحدودة، التي قامت بها أعداد محدودة من المجاهدين الشاميين، قد أثرت بشكل سلبي علي النشاط الاقتصادي الصليبي، بعد استقرار الصليبين ببلاد الشام. لذلك يلاحظ أن الإنتاج الزراعي في منطقة الخليل علي سبيل المثال، تأثر بالهجوم الذي كان يقوم به الفلاحون الفلسطينيون ضد الضياع، والأراضي الزراعية التي كانت مملوكة للفرنجة.[٣] وقد ذكر أيضا أسامة بن منقذ – الذي زار فلسطين أثناء الحكم الصليبي– موضوع مهاجمة الضياع والمزروعات الصليبية من قبل الفلاحين المسلمين، فقد ذكر ذلك تحت موضوع محاكمات إفرنجية، والتي عقدوها لاثنين من المسلمين اتهموهما بمهاجمة ضيعة من ضياع نابلس المملوكة

---

[١] المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ج٢، ص٧٢.

[٢] المؤرخ المجهول: الحرب الصليبية الثالثة، ج٢، ص٨٦، لين بول: المرجع السابق، ٢٦٢.

[٣] ثيودريش: المصدر السابق، ص ١٠٩، سعيد عبدا لله البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ص ٤٤٠.

للصليبيين، ولعل مثل هذه الأعمال أسهمت كثيراً في محاربة الاقتصاد الصليبي، ومن ثم أسهمت في النهاية بالقضاء على الكيان الصليبي في الأراضي المقدسة. [١]

الصناعات التي قامت علي الموارد الغابية ببلاد الشام:

ليس من شك في أن تميز بلاد الشام في النشاط الصناعي يعود إلي وفرة المواد الخام التي تمتلكها هذه المنطقة، الأمر الذي أعطاها فرصة طيبة لقيام العديد من الصناعات بها، [٢] والذي يهمنا هنا هو الحديث عن أهم الصناعات إلي قامت علي الثروة الغابية المنتشرة في بلاد الشام. وأهمها **الصناعات الخشبية**، والفنون التي ارتبطت بها، وكذا ما تفرع عنها من صناعات دقيقة أخري برع فيها أهل الشام.المعروف عنهم النشاط الوفير والمثابرة والجد في العمل، لذلك امتاز صناعهم بالمهارة الفائقة، فقد استغلوا كل ما تجود به بيئتهم من مواد خام ليقدموا صناعتهم التي شهد بها كل من زار بلادهم. [٣]اشتهرت بلاد الشام منذ القدم باتساع الغطاء النباتي والغابي والذي أمدهم بالعديد من أنواع الأخشاب المختلفة [٤] التي تم استخدامها في التدفئة من البرودة الشديدة، وأعمال البناء العمراني، وكذلك الأعمال المنزلية. [٥]ومع تقدم الوقت برع الشاميون في تطوير هذه الصناعة،[٦] كما استخدموا فحم الخشب في عملية صهر المعادن، فاستخدم النحاسون هذا الفحم، وكذلك صناع الأسلحة.[٧]

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، (برنستون، ١٩٣٠)، ص١٧٧-١٧٨.

(٢) بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين، ص ٩٩.

(٣) زكي النقاش: المرجع السابق، ٩٤، ٩٥.

(٤) يعقوب الفتري: تاريخ بيت المقدس، ص ٦.

(٥) أبن خلدون: مقدمة أبن خلدون، ج٢، تحقيق علي عبد الواحد وافي (القاهرة، ٢٠٠٦م)، ج٢، ص٨٦٩.، محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون، ص٦٨.

(٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢ ص٢٣٠

(٧) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، (القاهرة ٢٠٠١) المجلد ٨، ج١٥، ص٨٩

ومما لاشك فيه أن تطور هذه الصناعة مرت بتجارب كثيرة في عملية تهذيب الأخشاب وتجهيزها وتشكيلها حتى وصلت إلي هذا التقدم الهائل في فن التعامل مع قطع الخشب،[١]وقد أشاد الرحالة الذين زاروا بلاد الشام في تلك الفترة علي مدي تقدم فن استخدام الخشب، وما أضافوه من زخارف ونقوش ظهرت واضحة وجلية وهي تزين أبواب المساجد ومحاريبها، وفن الحفر والاربسك الذي يزين منابرها، [٢]وأيضا الرسوم النباتية والأشكال الهندسية التي تزين هذه الأبواب، وليس أدل من وصف الرحالة أبن جبير[٣] لمحراب المسجد الأموي بدمشق وما حواه من رسوم وزخارف عديدة، كما يؤكد أيضا الرحالة ثيودريش [٤]الذي زار بيت المقدس، حيث وصف لنا واجهات كنائسها ومنازلها ونوافذها الخشبية وكذلك استخدم الشاميين فنهم في إبراز المشربيات الجميلة، والتي كانت تستخدم كستائر للنوافذ تخفف فيها حدة الضوء من الداخل، وتمكن للنساء خاصة رؤية من بالخارج دون أن يراهن أحد.[٥] وأعطي لنا الرحالة بن بطوطة صورة رائعة عن مدي تقدم صناعة الأخشاب وما ارتبط بها من صناعات دقيقة فيذكر أن أهالي بعلبك [٦] برعوا في إنتاج أنواع من الأواني الخشبية الملاعق الخشبية التي لا نظير لها.[٧] وأيضا في فن صناعة الأثاثات المنزلية من أبواب وشبابيك ومتكآت، كما برعوا أيضا في صناعة الكراسي والمقاعد مستخدمين نوعاً من الأخشاب يأتي من شجر الأسل والذي ينمو علي ضفاف نهر الأردن، وسط غابة من أشجار الصفصاف. [٨]

---

[١]علي محمد فهمي:البحريةالإسلاميةفي شرق البحر المتوسط،ضمن كتاب البحرية المصرية،(الإسكندرية ١٩٧٤)، ص٣٧٠

[٢] جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر (القاهرة ٢٠٠٠م) ص ٥٠٦.

[٣] رحلة بن جبير، ص٢١٩: ٢٢١.

[٤] ثيودريتش: وصف الأراضي المقدسة، ص٦١-٦٢.

[٥]عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي، (القاهرة، ١٩٧٨م) ص ٢٥٩-٢٦٠.

[٦] مدينة قديمة بينها وبين دمشق١٢ فرسخاً من جهة الساحل. أنظر، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج١، ص٤٥٣.

[٧] أبن بطوطة: مهذب رحلة بن بطوطة.، ص٦١.

[٨] أبن خلدون : المصدر السابق ،ج٢ ، ص٨٦٩ ، دانيال الراهب : المصدر السابق ، ص ٦٤ هامش ٢.

صناعة السفن والمراكب الحربية:

ليس من شك في اعتماد هذه الصناعة علي الغابات التي يستمد منها الأخشاب اللازمة لصناعة السفن سواء كانت للنقل أو الصيد أو للمعارك الحربية، [1]فبواسطة الأخشاب يتم بناء قاع السفن، وألواحها وشراعها وأعمدتها ومجاديفها، وقد مرت هذه العملية بعدة تجارب كثيرة هي عمليات تقطيع الأخشاب ثم تهذيبها ثم قلفطتها وأخيراً تشكيلها بحيث تستطيع مقاومة الأمواج. [2] من المعروف أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من شجع المسلمين علي القيام بأنشطة بحرية، وقد تم أنشاء أول دار لبناء السفن في بلاد الشام في مدينة عكا، ثم نقلت هذه الدار إلي مدينة صور في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، ثم نقلت دار الصناعة مرة أخري إلي ميناء عكا، وتم تطوير هذا الميناء وصناعته في عهد احمد بن طولون. [3]ويضيف ناصر خسرو قائلاً:[4] " إن هذا الميناء وسلسلته التي كانت ترخي في الماء بدرجة تسمح للسفن بدخول الميناء سالمة، ثم تشد لمنع سفن الأعداء من دخولها". وكذلك تم بناء دار لبناء السفن في طرسوس [5] بلاد الشام.[6]

وعن فن النجارة عامة وفن بناء السفن خاصة ، يذكر أبن خلدون قائلاً: [7]" أن هذه الصناعة من ضرورات العمران، مادتها الخشب، وذلك لأن الله سبحانه وتعالي جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع، يكمل بها ضرورياته أو حاجياته، وكان منها الشجر، فإن له من المنافع مالا ينحصر، ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا يبست،

---

[1] محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون، ص ٦٨.

[2] علي محمد فهمي: البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط، ضمن كتاب البحرية المصرية، ص٣٧٠.

[3] علي محمد فهمي: المرجع السابق، ص ٣٦٠.

[4] سفر نامة، ص ١٥-١٦.

[5] هي انطرسوس وهي بلد من سواحل الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص.أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٣٥٩

[6] ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، المجلد ٨، ج١٥، ص٧٣.

[7] مقدمة بن خلدون، ج٢ ص، ٨٦٩-٨٧٠

وتحتاج إليه هذه الصناعة في إنشاء السفن البحرية ذات الألواح والدسر،[١] وهي أجرام هندسية صنعت علي قالب الحوت.. وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح، وربما غبيت بحركة المجاديف كما في الأساطيل. ويتضح من خلال حديث أبن خلدون مدي أهمية الأخشاب في بناء السفن، والمعروف أن هذه الصناعة التي ازدهرت ببلاد الشام نتيجة توافر مقوماتها، وأهمها الأخشاب المستعملة في بنائها والتي كانت تستخرج من أشجار معينة أهمها أشجار اللبخ Lebek والتي تتميز بالصلابة، وكذا أشجار السنط والأرز والبلوط والشربين الفارع الطول، والموجود في مناطق مختلفة من بلاد الشام وخاصة جبال لبنان وحول بيت المقدس. [٢] ومن أهم الأخشاب المستخدمة أيضاً في بناء السفن والمتوافرة بكثرة في غابات لبنان الداخلية من قديم الزمان وهي أخشاب أشجار الصنوبر، وهذا ما يؤكده الرحالة ناصر خسرو بأن مدينة حيفا الواقعة علي شاطيء البحر كانت مليئة بغابات النخيل وغيرها من الأشجار التي أمدت صناعة بناء السفن، حيث ذكر أن بها عمالاً يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودي.[٣] وأيضا في جبل طابور [٤]الواقع غربي بحيرة طبرية حيث قامت علي منحدراته غابات واسعة مليئة بأشجار الأخشاب من جميع الأنواع.[٥] وخاصة أشجار البلوط التي نمت في غابات السفوح الغربية من هذا الجبل[٦]أما المؤرخ يعقوب الفتري فيضيف أن أهل صيدا [٧] كانت لهم شهرة كبيرة في مجال الأخشاب وتقطيعها، واشتهر أهلها بمهنة قطع الأخشاب وتصنيعها.[٨]

---

[١] قال الله تعالي في سورة القمر آية١٢:" وحملناه علي ذات ألواح ودسر." صدق الله العظيم.

[٢] ثيودريتش: المصدر السابق، ص ٥٩، وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٨.

[٣] سفر نامة، ص ١٨.

[٤] جبل طابور: بإقليم الجليل شرقي مدينة الناصرة علي بعد أربعة أميال منها: دانيال الراهب: المصدر السابق، هامش٥.

[٥] دانيال الراهب: وصف الأراضي المقدسة، ص ٩٩.

[٦] لين بول: صلاح الدين، ص ١٤٩.

[٧] صيدا: تقع علي ساحل البحر بينها وبين مشغرا ٢٤ميلاً وبين دمشق٦٦ميلاً.أنظرأبوالفدا:المصدر السابق، ص ٢٤٩.

[٨] يعقوب الفتري: تاريخ بيت المقدس، ص ٣٤.

وأكد المؤرخون أن صلاح الدين عندما استحوذ علي ملك مصر سنة ١١٧١م، استعان في بناء أسطوله بالخشب المحلي في مصر، ثم استقدم أخشاب الصنوبر والأرز التي كانت تنمو في جبال لبنان، والعديد من المناطق ببلاد الشام.[١] وهذا يؤكد ما زخرت به بلاد الشام من غابات وفرت الأخشاب اللازمة للاستخدام في جميع المجالات. لذلك نلاحظ أنه عندما قدم الصليبين إلي بلاد الشام، سهل عليهم الغطاء الغابي عملية التوغل فيه حتي بلغوا أهدافهم، فقاموا بقطع الأخشاب وبدأوا في تنفيذ ما ابتكروه من آلات حصار حديثة، ارتبطت واستخدمت في حصار للمدن التي استعصي عليهم فتحها، وفي ذلك يذكر وليم الصوري أنه أثناء حصار بيروت سنة ١١٠٠م قائلاً:[٢] " أنه كان علي مقربة من المدينة غابة من الصنوبر، استطاع الجيش الصليبي أن يحصل علي كميات ضخمة من الأخشاب تصلح لصناعة سلالم التسلق وكل أنواع الآلات، فصنعوا منها الأبراج الخشبية وآلات الرمي، وشتي صنوف العدد النافعة في الحصار ". كذلك فقد استقدموا مهندسيهم وعمالهم المهرة، لبناء أبراج خشبية للحصار، وكذلك عمل آلات حربية جديدة لم يكن لأهل الشام معرفة بها من قبل، [٣] وقد تم استخدام هذه الأبراج والآلات في اقتحام أسوار إنطاكية ومعرة النعمان وغيرها من المدن والحصون حتى وصلوا بيت المقدس.[٤] أما المؤرخ أسامة بن منقذ فيذكر أن الصليبيين قطعوا أخشاب الغابات لسد حاجتهم في وقت السلم والحرب.[٥]

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، مقال ضمن كتاب البحرية المصرية، ص ٥٧٦.

(٢) الحروب الصليبية، ج٢، ص ٢٨٨

(٣) هايد: تاريخ التجارة في حوض البحر المتوسط في العصور الوسطي، ج١، ص ١٤٨.

(٤) (١٤٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٢، ص ١٢٤-١٢٨، رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص ٣٩٦.

(٥) الاعتبار، ص٩٥.

وعلي الرغم من كل ما ذكر، عن وفرة الغابات في تلك المناطق، فقد كان لابد من استيراد أنواع أخري من غرب أوربا، فيذكر أن البنادقة نقلوا أنواعاً من الأخشاب كانت تستخدم في بناء السفن وذلك من غابات دالماشيا .Dalmatia [١] وأيضا يذكر أن صلاح الدين عقد معاهدة مع الجنوية بهذا الغرض والحصول علي الأخشاب والحديد والشمع، وكل هذه المواد تستخدم في بناء السفن والأسلحة.[٢]

صناعة الحبال: أرتبط بصناعة السفن وبنائها صناعة الحبال التي تشد الألواح الخشبية وتشد الشراع والقلوع، واستخدماتها المتعددة في السلم والحرب، ونظرا لان الساحل الشامي ملي بغابات من أشجار النخيل، وفي معظم الأودية الشامية، وكانت تستخرج منه الألياف التي تستخدم في صناعة الحبال، والتي كانت ترتبط بصناعة السفن، وأغراض أخري، لذلك انتشرت هذه الصناعة في أماكن عديدة من بلاد الشام خاصة في طبرية.[٣]

صناعة الحصائر: تحدثنا عن وفرة الأنهار والينابيع في بلاد الشام، الأمر الذي جعل غابات من البوص والحلف تنمو علي ضفاف تلك الأودية والأنهار، حول الترع والمصارف [٤] وبرع الشاميون في استخلاص الحشائش وتجفيفها واستخدامها في صناعة الحصائر التي استخدمت في ذلك الوقت كفراش للمنازل، وفرشت بها أيضا المساجد لأداء الصلاة عليها، وقد اشتهرت العديد من المدن بهذه الصناعة نذكر منها طبرية [٥] ثم تطورت هذه الصناعة في مدينة صيدا، حيث ظهرت الحصائر المنقوشة أي المزخرفة بالرسومات الهندسية الجميلة، كذلك اشتهرت أيضا بيروت بهذه الصناعة.[٦]

---

[١] هايد: المرجع السابق، ج٢، ص ١٢٨

[٢] هايد المرجع السابق، ج٢، ص ٤٧.

[٣] وليم الصوري: المصدر السابق، ج٢، ص٢٣٦، زكي نقاش: المرجع السابق، ص ١٠٠.

[٤] المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن، ١٩٠٦م)، ص ١١٨، دانيال الراهب: المصدر السابق، ص٦٥.

[٥] ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ١٧-١٨.

[٦] ناصر خسرو:سفرنامة، ص ١٤وليم الصوري:المصدر السابق،ج٢، ص ٢٣٦، زكي نقاش: المرجع السابق ص٩٧.

صناعة الحرير الطبيعي: أهتم الشاميون بزراعة أشجار التوت بهدف صناعة الحرير الطبيعي في بلادهم، ولا شك أن هذه الصناعة خطت خطوات واسعة في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، خاصة عندما نالت هذه المنسوجات إعجاب الصليبين، فأخذوا يتفاخرون ويتنافسون في ارتداء الحرير بمختلف ألوانه، [١]ويذكر أبن منقذ:[٢] أن رجال الدين المسيحيين ارتدوا الملابس الحريرية أثناء قيامهم بأداء بعض الشعائر الدينية وبعض الفرسان. وقد أشار ماركوبولو في رحلته إلي أن دمشق كانت تحتل مركزاً مرموقاً في إنتاج نوع معين من الحرير أطلق عليه الحرير الدمشقي، [٣]وفي مدينة اللاذقية [٤] نفسها يذكر أن كان يوجد حولها غابة من الأشجار الطبيعية والمثمرة بأشجار التوت، وذلك لتربية دودة الحرير، ولذلك اشتهرت اللاذقية بمعامل الحرير الطبيعي. [٥] ويذكر أيضا أن أهم المراكز لصناعة الحرير إنطاكية وصور وفي طرابلس اشتغل عدد كبير من الصناع، ويؤكد بورشارد [٦] أنه سمع وتأكد من وجود نساجون للحرير في طرابلس، وكان إنتاج هذه المدن الشامية له سوق رائجة في أوربا نظراً لما تميز به من جودة.[٧]

صناعة الصباغة: وهي من الصناعات المرتبطة بالأقمشة وقد برع الشاميون في صناعة أنواع جيدة من هذه الصباغة، ويشير هايد إلي أن أشجار غابية تنمو في بغداد وأقاليمها المجاورة، وكذلك زرعت حول سهول صور الساحلية ووادي الأردن، كانت هذه الأشجار تجود بما عرف قديما بمادة النيلج (النيلة) Tndigo وهي المادة التي تستخدم في الصباغة.[٨] ، ويشير البعض علي أن هذه الصناعة تقدمت عصر الحروب

---

(١) هايد: المرجع السابق، ج١، ص١٩٠.

(٢) الاعتبار، ص ٧٩.

(٣) ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة، ١٩٧٧م)، ص ٣٨.

(٤) مدينة في ساحل الشام، أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص ٥..

(٥) www.sarytourism.org

(٦) وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص ٥١.

(٧) هايد: المرجع السابق، ج١، ص ١٩٠.

(٨) هايد: المرجع السابق، ج٤، ص ١٣٠-١٣١.

الصليبية، ويذكر البعض أن مدينة صور كانت من أكثر مدن الشام شهرة في صناعة الصباغة، ويشير أيضا إلي أن اليهود هم الذين احتكروا هذه الصناعة دون غيرهم [١] وبالتالي فقد ازداد شأن الصباغيين وخاصة بدمشق كما ذكر ابن جبير: [٢] "أنه كان لهم شارع خاص بهم، يقومون فيه بتلك الصناعة وأطلق عليه أسم " الكمادين ".

صناعة الورق: ليس من شك أن صناعة الورق والتي انتشرت في بغداد في تلك الفترة كان يدخل في صناعتها لباب الأخشاب ولحي الأشجار، وقد نمت هذه الصناعة وازدهرت في مراكز أخري في بلاد الشام فقد اشتهرت طرابلس بصناعة الورق أيضا [٣] كما حرص الصليبيون علي نقل هذه الصناعة إلي غرب أوربا، حيث ظهر فيها الكتاب وتغليفه بعد ذلك.[٤]

صناعة الأدوية والعقاقير الطبية: تعج بلاد الشام بأشجارها الغناء التي تنتج العديد من أنواع العقاقير التي تستخرج من بعض أشجار الغابات أو من بعض الشجيرات التي تنمو في المناطق الصحراوية أو الجبلية وفي المناطق المجاورة لبيت المقدس،[٥] وهذه العقاقير تستخدم في علاج العديد من الأمراض. ويأتي في مقدمة هذه العقاقير استخدام الشاميون والصليبيون **للكافور** لاستحضار الدواء منه، ويذكر هايد أن إنتاج الكافور كان أكثر وفره في فترة العصور الوسطي. [٦]نظراً لأهميته في مجال علاج بعض الأمراض، ومجالات أخري استخدم فيها أيضا، أما أسامة بن منقذ [٧] فيذكر، أن من فوائد الكافور العلاجية أنه إذا وضع علي الرأس المصابة بالبرد، يذهب الكرب عن الرأس بعد لحظات، ويعود المريض لطبيعته. ثم تأتي صناعة استخراج **زيت البلسم** من

---

(١) بنيامين التطيلي:رحلة بنيامين التطيلي،ت عزار جداد، ط١(أبوظبي،٢٠٠٢)ص٩٩،هايد:المرجع السابق،ج١،ص١٩٠

(٢) الرحلة، ص ٢٥٣.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٣.

(٤) أبو شامه: الروضتين، ج١ ص ٢٦٨، سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطي، ج٢، ص ٢٦٨.

(٥) دانيال الراهب: وصف الأراضي المقدسة، ص ٦٢.

(٦) المرجع السابق، ج٤، ص٩٠.

(٧) الاعتبار، ص ٢٣٩-٢٤٠.

أشجاره المنتشرة بكثرة في غابات بلاد الشام وخاصة في سورية وفلسطين وأريحا،[١] ويذكر أن المصريين نقلوا زراعته من أريحا [٢] إلي مصر.[٣] وقد أبدي الصليبيون اهتماماً خاصة بهذا المستخرج وذلك لاستخدامه في الطقوس الدينية،[٤] وكان يعد من منتجات التصدير الأولي في بلاد الشام، حيث نقله الإيطاليون لأسواقه الرائجة في أوربا،[٥] وقد كان يطلق عليه " بلسم الأراضي المقدسة " [٦] ولم يقتصر استخدامه في الأغراض الدينية فقط، بل استخدم أيضا في أغراض طبية أخري مثل تطهير الجروح، وحفظ جثث الموتى، وحماية أجسام المحاربين من الحروق أثناء الحروب.[٧] كما أن شجر البلوط(السنديان) كانت له خصائصه العلاجية أيضا.[٨]

كذلك ذكرت بعض المصادر عن انتشار **أعشاب المريمية:** وهو من النباتات التي تنمو بكثرة في أراضي فلسطين، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلي السيدة العذراء، لأنها أول من استخدمت هذه الأعشاب للدواء، ويذكر أن أوراقة مرة المذاق، وتستخدم في علاج الاضطرابات المعوية، وتنشيط الدورة الدموية وأمراض الروماتزم والإسهال والصداع وضعف الذاكرة،[٩] كذلك نمت بعض **النباتات العطرية:** مثل الورود والرياحين والنرجس والبنفسج والنسرين والزعفران في معظم مناطق بلاد الشام، وذلك من أجل الأغراض الطبية ومن أجل الترويح عن النفس بروائحها الجميلة.[١٠]

---

(١) بورشارد: المصدر السابق، ص٦٢، هايد: المرجع السابق، ج٤، ص ٧٥.

(٢) أريحا:هي مدينة الجبارين في الغور من نهر الأردن بالشام بينها وبين بيت المقدس مسيرة يوم للفارس في مسالك صعبة .أنظر، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج١، ص١٠٨.

(٣) محمد مؤنس عوض: المرجع السابق، ص ٦٧.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، ص ٣٧٢.

(٥) ماركو بولو: المصدر السابق، ص ١٦، عبد الحافظ البنا: أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ص ٤٠.

(٦) بورشارد: المصدر السابق، ص ٦٢.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الأنشا، ج١٠، ص ١٣.

(٨) فورزبورج: وصف الأراضي المقدسة، ص ٩٨.

(٩) بورشارد: المصدر السابق، ص ١٦٨، هامش١.

(١٠) ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص ١٠٩، زكي النقاش: المرجع السابق، ص ٩٦،

وعلي أية حال، بعد أن نجح الصليبيون في تحقيق أهدافهم بالاستقرار بالمنطقة، أولوا كل جهدهم واهتمامهم بتحسين الأوضاع الاقتصادية للملكة وقد كان علي رأس أولويات اهتماماتهم الغطاء الغابي والنباتي، الأمر الذي انعكس علي اقتصاد المملكة وثرائها، فالرحالة الألماني ثيودريتش[1] الذي زار الأراضي المقدسة في القرن الثاني عشر الميلادي، أكد عظمة مدنها وجمال مبانيها ونظافة شوارعها ووفرة سكانها، وزيادة عدد حجاجها من كل مكان. أي أن الصليبين بعد استقرارهم في بلاد الشام ولمدة قرن تالي من الزمان، واندماجهم في حياة الكثير من أهل الشام وخاصة الاجتماعية منها، [2] حيث شاطروهم في زروعهم [3] وصناعاتهم وحسنوا وطوروا ونقلوا إلي أوربا العديد من هذه الصناعات، إلا أنه لا مجال للشك في أن الأعمال العسكرية التي كان يقوم بها الشاميون من الحين للآخر لتخريب الاقتصاد الصليبي قد أتت أكلها، هذا إلي جانب أن انتصارات صلاح الدين في حطين ١١٨٧م (٥٨٣ هـ) قد ساهمت إلي حد كبير في تقليص النشاط الصناعي للمستعمرات الصليبية، نتيجة تحرير العديد من مدن الشام علي يد صلاح الدين بعد انتصاره العظيم في حطين، الأمر الذي دعا الصليبين إلي النزوح إلي المدن الساحلية المتبقية بأيديهم، والاهتمام بشكل مكثف بالعمليات التجارية علي حساب النشاطين الزراعي والصناعي.[4]

المعوقات التي أثرت علي الغطاء الغابي ببلاد الشام:

مما لاشك فيه أن الكوارث الطبيعية من فيضانات وجفاف وزلازل وحرائق وقوارض، تعد من أكبر المعوقات سواء البيئية أو الاقتصادية، وإذا كانت البيئة والإنسان الشامي قد استفادت بنصيب كبير من وفرة وازدهار الغطاء النباتي والغابي ببلاد الشام، لكن كما هو الحال بأي مكان علي سطح البسيطة تعرضها للعديد من

---

[1] المصدر السابق، ص١٤٦.

[2] ابن منقذ: الاعتبار، ص ١٦٩-١٧٣، ابن بول: صلاح الدين، ص ٤٨.

[3] ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٦٤.

[4] حاتم عبد الرحمن الطحاوي:الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ط١، (القاهرة، ١٩٩٩)، ص ٢١٧.

الكوارث الطبيعية، الأمر الذي هدد النشاط البشري والاقتصادي للشاميين جراء هذه الكوارث. وفي حديثنا عن أثر **كوارث الزلازل** علي الغطاء النباتي والغابي ببلاد الشام نلحظ أن كوارث الزلازل تؤدي خسائرها إلي هلاك الأعداد الكبيرة من البشر، أو تدمير المدن والمنشآت، وبالتالي تدمير ما يقوم علي النشاط الغابي من صناعات كما ذكرنا من قبل. أما تأثير الغابات بالزلازل فهو غير مؤثر إلا في حالات حدوث كوارث طبيعية أخري مصاحبة للزلازل، مثل الانزلاقات الأرضية، والانجرافات الطينية، أو حدوث صواعق يمكن أن تؤدي إلي اشتعال الحرائق في الغابات وهو ما حدث في زلزال سنة ١١٢٥م (٥٣٣هـ) حيث تعرضت له مدينة جنزة [*] مات بسببها مائتا وثلاثون ألفا، وخسف بها، " وصار مكان البلد ماء أسود مساحته عشرة فراسخ في عشرة فراسخ ".[١]

وعلي أية حال، يذكر أبن القلانسي أنه في سنة ١١٢٥م (٥٣٣هـ)، في ليلة الثلاثاء الرابع من صفر، هزت دمشق زلزلة بعد الظهر اهتزت بها الأرض ثلاثة مرات، وتلاها في ليلة الجمعة وقت العشاء هزة ثانية اهتزت لها الأرض عدة مرات، ويذكر أيضا أن بعد هذه الهزة بأسبوع واحد أي ليلة الاثنين التاسع عشر من صفر عادت الزلزلة وهزت الأرض ثلاث مرات. [٢] وفي هذا يؤكد أن أكثر المدن الشامية كانت تضرراً من هذه الاهتزازات الأرضية، فقد أنهدم في حلب الكثير من الدور، وتصدع سور المدينة، واضطربت جدران القلعة، وخرج أهل حلب إلي ظاهر المدينة. (المصدر السابق والصفحة) ولتأكيد ما ذكر أنه في سنة ١١٥٧م (٥٥٢هـ)

---

[*] جنزة: أعظم بأران وهي بين شروان وأذربيجان، ويسميها العامة كنجة.أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق،ج٢،ص١٧١.

[١] أبن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٢٧-٢٨، ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص ١٦٨، أبن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص ١٠٩

[٢] ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٦٨.

تعرضت بلاد الشام لزلزال قوي للغاية، هلك علي أثره عدد كبير من السكان، ودمرت فيه مدن كبيرة مثل حماة وإنطاكية وحمص وطرابلس،[١] وقد أفاض العديد من المؤرخين في ذكر الأضرار التي لحقت بأهل الشام من جراْ هذا الزلزال وتوابعه، [٢] ويضيف ابن منقذ عن نفس هذه الكارثة قائلاً:[٣] " هلك فيه مالا يحصي "، " فقد خرب بالمرة حماة وشيزر وكفر طاب والمعرة وحمص وحصن الأكراد" ويضيف أيضا " ولم ينج من بني منقذ أحد سوي زوجة تاج الدولة التي انتُشلت من تحت الردم " وقد تأثرت منطقة القدس أيضا بالهزات الأرضية التي أصابت فلسطين بما فيها منطقة الخليل أثناء الحكم الفرنجي للمنطقة، الأمر الذي أدى إلى مقتل عدد كبير من الفلاحين الفلسطينيين وتدمير المنتجات الزراعية في المنطقة. [٤]

وعلي أية حال، فإذا كان تأثر الغابات بالزلازل ليس كبيراً، لكن الغابات والأماكن المفتوحة توفر قدراً من الأمان للناس أثناء حدوث الزلزال، وفي هذا الأمر يذكر أبو شامة عن أحداث هذا الزلزال المروع قائلاً: [٥]" أن الناس أجفلت من منازلهم والأماكن المسقوفة إلي الجامع والأماكن الخالية من البنيان خوفا علي أنفسهم "، وعندما وافت بعد ذلك أي كما يسمي توابع الزلزال " ففتح البلد وخرج الناس إلي ظاهره حيث الغابات والبساتين والصحراء، وأقاموا بها عدة ليالي من الخوف والجزع يسبحون الله في اللطف بهم والعفو عنهم ".

الجفاف: أما حالات الجفاف والتي تؤثر أيضا بالسلب علي الغطاء النباتي والغابي، فكما هو أثر الزلازل يؤثر هذا الجفاف في فناء الكثير من الأهالي كما حدث لأهالي الرها عام ١٠٩٩م (٤٩٢هـ)،[٦] وفي سنة ١١٢١م (٥٢٨هـ) احتبس المطر بأرض الشام،

---

(١) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص ١٠٥.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ٣٣٥- ٣٤٤)، ناصر خسرو: سفر نامة، ص ١٩.

(٣) فيليب حتي: تقديم كتاب الاعتبار، ص د.

(٤) سعيد عبد الله البيشاوي: المرجع السابق، ص ٤٤٩.

(٥) الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص ١٠٥.

(٦) علية الجنزوري: أمارة الرها، ص ٣٦٢.

مما اتلف الكثير من الزروع " فغلا السعر وعم القحط أكثر البلاد الشامية ". [١]وفي سنة ٥٤٣هـ يذكر أيضا أنه كان هناك في بلاد الشام جفاف في الأمطار، وخاصة في مناطق الحورانية ومناطق الغوطة بدمشق، فلم يتمكن الشاميين في هذه المناطق من" فلاحة أراضيهم وقنطوا ويئسوا من نزول المطر ". وما أن هطلت الأمطار حتى " انشرحت الصدور" [٢] وهذا يؤكد أن الجفاف يؤثر علي الغطاء الغابي، وبالتالي تتأثر الصناعات القائمة علي الثروة الغابية، الأمر الذي يؤدي إلي ارتفاع الأسعار.

الرياح والأعاصير: ليس من شك في أن شدة الرياح وما يصاحبها من برق ورعد، يعد من معوقات الغطاء الغابي وما يقوم عليه من صناعات، فيذكر ابن القلانسي [٣]) أنه في سنة ١١٢٢م (٥٣٠هـ) هبت رياح شديدة علي العديد من بلاد الشام، أدت إلي تدمير الكثير من الزروع والغابات. في حين يذكر ابن قاضي شهبة [٤] أنه في سنة ١١٤٧م (٥٤٢هـ) هب علي دمشق " رعد قاصف، وبرق خاطف، ووهدات مزعجة، أصابت أشجار الغوطة بدمشق ". كما يذكر البعض أنه في سنة ١١٥٢م (٥٤٧هـ)، أرسل الله تعالي مطراً مصحوباً بالرعود والبروق المتتابعة، حتى فاضت منه مياه بردي، وبعدها بأيام إي في شهر مارس " كانت زمجرة الرعود وتتابع البروق وهطول الأمطار في عدة جهات من البلاد الشامية." [٥]

ومن المعوقات أيضا تلاحظ أن **الأبخرة والدخان** التي كانت تنبعث أحيانا من بعض البحار، يمكن أن تكون عائقاً طبيعياً للغطاء الغابي أو النباتي أيضا، وهذا ما أشار إليه الرحالة بورشارد [٦]حيث ذكر أن الأبخرة والدخان المنبعث من البحر الميت أثر سلباً

---

[١] ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢١٢.

[٢] أبو شامة: الروضتين، ج١، ص ٦٩، ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص ١٣٤.

[٣]) ذيل تاريخ دمشق، ص٤٠٣.

[٤] الكواكب الدرية، ص، ١٢٤-١٢٥.

[٥] أبن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣١٨.

[٦] وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص ١١٨.

في برية فاران، فقد قضت هذه الأبخرة والدخان علي نمو الغابات والحشائش من جميع الأنواع، وأصبح هذا الوادي أرض قاحلة رغم أتساعها.

الجليد في بلاد الشام: أما إذا تحدثنا عن تساقط الثلوج علي بلاد الشام فإنها تعد من العوائق الطبيعية التي تصيب الغطاء الغابي وحركة الإنسان بها أيضا، وبالتالي توقف أي نشاط للإنسان في فترة تساقطها، فالجليد شأنه شأن أي من الكوارث الطبيعية الأخرى يعطل الحياة الاقتصادية في الأماكن التي يتساقط عليها، ومناطق بلاد الشام من المناطق التي يتساقط عليها الجليد بغزارة، وخاصة في المناطق الشمالية منها وعلي قمم الجبال، وخاصة في جبال لبنان ومناطق الجزيرة، فيذكر المؤرخون أنه في سنة١١٢٠م(٥١٥هـ) تساقطت الثلوج علي بغداد وما حولها بغزارة، واستمرت المدينة وما حولها مغطاة بالجليد خمسة عشر يوماً " وما ذابت وهلك الكثير أشجار الأتراج والليمون "[١] حتي أن مدينة البصرة التي لم يعهد سقوط ثلوج عليها، سقط الثلج عليها في هذا العام.[٢] في حين يذكر البعض أنه في سنة١١٥٠م (٥٤٥ هـ)، أرسلت السماء ثلجاً، لم ير في السنين الخالية مثله، وتمادت به الأيام بحيث عم دمشق وأراضي حوران والبقاع والبرية ". [٣] وهنا يتضح أن المؤرخين لا يذكرون تساقط الثلوج في كتاباتهم إلا في الحالات التي يكون سقوطها غزيراً وكثيفاً، أي مخالفاً لما اعتادوه في كل عام من تساقط ثلوج. ولذلك يذكر أنه في سنة ١١٥٣م (٥٤٨هـ) تتابع سقوط الأمطار والثلوج في الجبال، ثم أنتشر إلي باقي دمشق والأعمال البقاعية " ما لم ير مثله " ثم ذاب الثلج فسالت الأودية وفاضت الشعاب وأصبح " كالنيل الجارف ".[٤] ومما يؤكد حديثنا أن الجليد من المعوقات الكبيرة للغطاء النباتي والغابي ما ذكره بعض المؤرخون أنه في سنة١١٥١م (٥٤٦ هـ) قصد الصليبيون ناحية البقاع ببلاد الشام المليئة بالأشجار

---

(١) أبن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ٢١٢.

(٢) ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص ٨٧.

(٣) أبن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣١٢.

(٤) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣٢٤.

والغابات، وهاجموا سكانها، ونهبوا المواشي وشبوا النساء وأسروا الرجال، فأرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطهم وحيرهم، وتمكن المسلمون من إنقاذ أسراهم، وقتل عدد كبير من الصليبين " واستخلصوا من الأسري والمواشي من سلم الهلاك بالثلج وهو الأقل ".[١]

وأخيرا إذا تدبرنا أمر تساقط الجليد علي بلاد الشام، نلاحظ أيضا تجمد الطرق ومسالك الغابات وجميع المزروعات، والذي يصل أحياناً لأكثر من ذراع،[٢] واستمراره علي تجمده لفترات طويلة خلال فصل الشتاء، وهذا يعني أن حركة التوسع الصليبي من جهة، وحركة الجهاد الإسلامي من جهة أخري، أي توقف أي عمليات حربية خلال تلك الفترة، نظراً لصعوبة السير أو الحركة في هذه الأماكن.[٣]

الآفات الزراعية: ليس هناك شك من أن أشد الآفات الزراعية فتكاً بالنبات هو **الجراد**، وقد أسماه العرب جراداً لأنه يجرد الأرض من كلأها ومرعاها، فيتركها جرداء خاوية لا زرع ولا ضرع، وهو قديم العداوة للإنسان، فلطالما هدد اقتصاده ونزع القوت من فمه، وأتي علي الأخضر واليابس، فانتشرت بسببه المجاعات في أرجاء كثيرة من الأماكن، ولذلك قال الله تعالي في سورة القمر: " يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر".[٤] وأيضاً في سورة الأعراف يقول تعالي:" فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين".صدق الله العظيم.[٥]

كانت بلاد الشام من البلاد التي تتعرض إلي غزو الجراد، وقد رصد لنا المؤرخون مدي الدمار والخراب الذي يحل بالمناطق التي يمر بها الجراد، ويذكر أنه في سنة ١١٣٦م (٥٣٠هـ) تعرضت دمشق وولاياتها لظهور الجراد فوق مزارعهم " فزاد

---

[١] ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص ١٣٨، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣١٧-٣١٨.

[٢] الكواكب الدرية، ص ٨٧.

[٣] محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون، ص ٦٨.

[٤] قرآن كريم: سورة القمر، آية ٧.

[٥] قرآن كريم: سورة الأعراف، آية ١٣٣.

الناس خوفاً ". [١] ومن التأثيرات السلبية أيضا على الغطاء الغابي في مدن فلسطين، ما تعرضت له المنطقة في بداية الغزو الفرنجي من آفات زراعية ومهاجمة الجراد للمنطقة.[٢] أما في سنة ١١٢٠م اجتاحت مملكة بيت المقدس الصليبية أسراب الجراد والفئران المتوحشة، فالتهمت الزروع وأتت عليها علي مدي سنوات أربع متتالية " حتى لقد عز الخبز عن كل البلاد ". [٣] أما فوشيه الشارتري فيتحدث عن هذه الحادثة بأن الأرض المقدسة عجت بحشود لا تعد ولا تحصي من الجراد ملتهمة محاصيل الحقول والأشجار، حيث يذكر قائلاً: [٤] " كنت تراهم يزحفون كأنهم جيش من الرجال يسيرون بانتظام كما لو أنهم عقدوا المشورة، ونظموا زحفهم حسب الاتفاق، حتى أنهم لم يتركوا أخضراً التهموا وقضموا لحاء الشجر ". وخلاصة الأمر نلاحظ أن خطر الجراد يعد من أكبر الأخطار المباشرة علي الغطاء النباتي والغابي، فهو مهدد لقوت الإنسان ومهدده بالمجاعات، كما انه هادم للاقتصاد والتطور والنماء.

الحروب وإزالة الأشجار: من المعلوم أن النهضة والرقي مرتبطتان بالأمن والاستقرار، كان هذا حال الشاميين عندما تعرضوا للغزو الصليبي الذي سلب أراضيهم وممتلكاتهم وفي بعض الأحيان حرياتهم، لم يرض أهل الشام المهانة ولا الاستكانة، فكانت عمليات الانتقام والاسترداد لما سلب، وأصبحت معظم الأراضي التي احتلها الصليبيون مناطق حربية غير آمنة. فمنذ البداية لم يظهر الصليبيون لأهل الشام إلا السلب والنهب واقتلاع الأشجار التي هي جذورهم، وخاصة المثمرة منها، وهي وسيلة الضغط علي الأهالي لقبول الواقع والخضوع [٥] وهي وسيلة ما زالت تستخدم علي الأراضي الفلسطينية حتى اليوم وغيرها من المدن، كوسيلة للضغط علي الشعوب المقهورة. وقد أتت هذه الوسيلة أُكلها أحيانا فترك الكثير من أهالي بعض المدن الشامية أراضيهم ونزحوا إلي

---

[١] ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص ١٠٥، ١٢٤.

[٢] Richard , J: The Latin Kingdom of Jerusalem , p.68

[٣] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٥٧,١

[٤] تاريخ الحملة إلي القدس، ص ١٦٠.

[٥] أبن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٨٤، وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج٣، ص ٢٤١

أماكن أخري أكثر أمناً.[١] وهذا ما يؤكده الرحالة بورشارد [٢] والذي زار بيت المقدس، وذكر أن بها قلة من السكان رغم اتساع مساحتها، وقد أرجع ذلك إلي أن السكان كانوا يعيشون في تهديد مستمر. ويذكر آخرون أن السكان كانوا يتركون الأراضي ويلجأون إلي الجبال خوفاً من الافرنج. [٣]

ولو بدأنا الحديث منذ ظهور الصليبين أمام إنطاكية في ١٠٩٨م، يذكر البعض أن القوات الصليبية قامت باجتثاث الأشجار والأحراش التي في أحد جوانب المدينة، واتخذت هذه الأشجار متاريس لحمايتهم وحماية خيولهم من هجمات المسلمين.[٤] وفي إقليم الرها سنة ١١١٠م (٥٠٤هـ) تقرر إخلاء الجزء الشرقي من الإمارة، لأنه أكثر تعرضا لأحداث الحروب. [٥]

في حين يذكر البعض أن معظم الأراضي التابعة لإقليم أريحا وخاصة في إقليم العيزارية [٦] لم يزرع وأهمل بسبب إغارات المسلمين المتكررة عليها.[٧] أما دانيال الراهب فيذكر [٨]أنه في مدينة بيسان الطرق غير مأمونة، لأن عدد كبير من المسلمين يستغلون الأشجار الموجودة بها، وكذلك مخاضات المياه لمهاجمة المسافرين والمارين من الصليبين. ويذكر أبن القلانسي [٩]أن ملك بيت المقدس بلدوين الأول عندما هاجم صور سنة ١١١١م (٥٠٥هـ)، قام بقطع أشجار الغابات والنخيل المحيط بالمدينة، وأقام عليها بيوتاً للإقامة عليها (معسكرات لجنوده) ومع كل ذلك " لم ينل منها غرضاً"

---

(١) رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص٤٢٠، عليه الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، ص ٣٦٣.

(٢) وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص.

(٣) الإدريسي: المصدر السابق، لوحة رقم ٢٢٥.

(٤) أبن العديم : زبدة الحلب ،ج٢ ، ص ٢١٤، وليم الصوري: المصدر السابق، ج١، ص٣٨٣.

(٥) علية الجنزوري: المرجع السابق، ص ٣٦٢.

(٦) بيثاني:وهي قرية العزارية الواقعة في حدود بيت المقدس وقدأقيمت علي احدي الروابي الواقعة جنوب شرق المدينة المقدسة، أنظر بورشارد:وصف الأراضي المقدسة، ص١٢٤، هامش (٢).

(٧) وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص١٠٩.

(٨) وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص٩٣

(٩) تاريخ ذيل دمشق، ص ٢٨٤

ويروي لنا وليم الصوري،[١]أن الصليبيين كانوا يقومون بأعمال انتقامية عندما يفشلوا في الاستيلاء علي موضع ما، سواء للدفاعات القوية من جانب الأهالي أو لوجود استحكامات حربية، كان الصليبيون يلجأون إلي قطع الأشجار المثمرة وغيرها ويجعلوها طعمة للنيران. وفي موضع آخر نلاحظ أن الصليبين عندما قرروا الهجوم علي عسقلان في نوفمبر ١١٥٢م، كانت خطة هجومهم بإشعال النار في غاباتهم وأشجارهم المحيطة بالمدينة " وهي تمثل قيمة عظيمة للمواطنين هناك "، وعندما رأي الصليبيون أن أهالي عسقلان ينسحبون إلي داخل مدينتهم، قرر الصليبيون حصار المدينة بدلاً من تقطيع وحرق الأشجار.[٢]

التصحر والمدنية وقطع الغابات: من خلال دراستنا لمعوقات الغطاء الغابي في بلاد الشام، نلاحظ أن بلاد الشام لم تتأثر بظهور المدن التجارية في أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي، وخاصة في المدن الإيطالية، حيث انتقل الناس من الريف إلي المدن التي انشأ وها لكي يعملون بالتجارة والصناعة، وكان ذلك علي حساب الزراعة.[٣] لكن المجتمع الشامي كان مجتمعاً زراعياً، يعتمد علي الزراعة ويرتبط بها،[٤]ويميل إلي الصناعات التي يتحصل علي مواردها من بيئته.[٥] لذلك لم يذكر المؤرخون أي محاولات لقطع أشجار الغابات، لإقامة مشاريع صناعية بدلاً منها،

---

[١] المصدر السابق، ج٣، ص٢٤١.

[٢] وليم الصوري: المصدر السابق، ج٣، ص٣٤٨-٣٤٩.

[٣] محمد مرسي الشيخ: النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطي، (أسكندرية، ١٩٩٦) ص ٧٣-٧٤.

[٤] وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٤١.

[٥] زكي النقاش: المرجع السابق، ص٩٤.

دكإقامة مدن تجارية أو صناعية عليها كما حدث في ايطاليا وبريطانيا وفرنسا في العصور الوسطي.[1]لكن من الواضح أن الشاميين كانوا أكثر ارتباطا بالأرض والأشجار، فكان نادراً ما يبني الشاميون منازلهم بدون إقامة حديقة أمامه، يهتمون بها،[2]وذلك طلباً للراحة النفسية وجمال البيئة الصحية. وأخيراً يعطينا الرحالة بورشارد[3]إشارة نادرة عن ندرة عملية التصحر في بلاد الشام، أي زحف الرمال علي مناطق الغابات وتغطيتها بالكثبان الرملية، فيشير أنه رأي بنفسه خارج مدينة صور يوجد " الحجر الكبير " الذي وقف علية السيد المسيح، ولم يغط هذا الحجر بالرمال علي الرغم من أن الرمال في هذا المكان تعتبر خفيفة، وتتطاير مثل ثلج الشتاء في البلاد الغربية والشمالية. فهذا يعني عدم وجود تصحر، بل من الواضح أن الغابات ظلت درعاً واقياً للحفاظ علي المدن والمناطق الزراعية بها.

الاستخدامات السلمية والترفيهية لمناطق الغابات ببلاد الشام

النزهة والصيد: لاشك أن جمال البيئة الغابية والنباتية في بلاد الشام، وما يتخلل هذه الغابات من أنهار صافية وينابيع تتدفق خلالها، أعطت لهذا المناطق سحراً وجمالاً تتوق إليه النفس للراحة من عناء الحياة ومتاعبها، بعد جولات طويلة من الكر والفر أثناء المعارك، الدائرة بين المسلمين والقوات الصليبية. ففي أوقات السلم يتوق الفارس ورفاقه إلي قضاء أوقات ترفيهية في المناطق المفتوحة لممارسة هوايات أخري مرتبطة أيضاً بالقتال والفروسية. فالقتال والصيد كانا من الأشياء المتلازمة في فروسية العصور الوسطي [4] ويكشف لنا أسامة بن منقذ أن شغفه بالصيد جعله يجد لذة في دراسة طباع

---

(1) مورس كين: حضارة أوربا في العصور الوسطي، ترجمة قاسم عبده قاسم، (القاهرة، ١٩٩٤م)، ص ٢٠٨.

(2) بورشارد: المصدر السابق، ص ٤٣.

(3) المصدر السابق، ص ٤٦.

(4) سعيد عاشور:أوربا في العصور الوسطي، ج٢، ص ٢٧٦، قاسم عبده قاسم: الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية، بحث في كتاب ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط (القاهرة، ١٩٨٣) المجلد الثاني، ص ١٩٦.

الحيوانات، فقد ذكر أن الأسود كالناس فيها الشجاع والجبان،[١] كما حدثنا عن النمر وما يتميز به، إلي جانب العديد من القصص عن طباع الحيوانات والطيور.[٢]

وعلي أية حال، فإن غابات بلاد الشام تعج بالحيوانات من مختلف الأنواع، خاصة الضارية التي تشجع الفرسان والشباب علي مزاولة رياضة الصيد، فيذكر دانيال الراهب[٣] أنه يوجد في برية بيت المقدس نمور وحمر الوحش والأسود بأعداد كبيرة، وأن أعداد كبيرة منهم كانت تردد علي الأدغال في وادي الأردن في حين يذكر بورشارد أنه بين مدينة بانياس وبحرية طبرية يدخل نهر الأردن أحد السهول، ويشكل بركة وقت ذوبان الثلوج في جبال لبنان، وتسمي ببركة الحولة، حيث تنمو غابة من الحشائش والأشجار بكثافة كبيرة، وتشمل هذه الغابة الأسود والدببة والثعالب والوعول والأرانب البرية والخنازير والظبيان الي جانب العديد من الحيوانات الاخري، وفي هذا المكان يجري أقامة مسابقات الصيد الملكية لدي الأمراء والفرسان الصليبين.[٤]

وقد روي لنا أسامة بن منقذ بعض صور الصيد التي كانت تتم في بلاد الشام الشمالية، فيذكر:[٥] " أنه يوماً أنه توجه للصيد مع عمه وجماعة من العسكر من مدينة شيزر،[٦](مسقط رأسه) فخرج علينا السبع من قصباء دخلناها لصيد الدراج [*]"، فيذكر أن أحد الجنود حمل علي الأسد، فاستقبله الأسد فحاص من علي الحصان أي سقط، وجاءه السبع وهو ملقي علي الأرض، فرفع الفارس رجله فتلقمها السبع..." وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم ". كما يروي أيضاً رواية أنه رأي عماد

---

[١] فيليب حتي: مقدمة كتاب الاعتبار، ص (ص).

[٢] الاعتبار، ص ٨٨، ١٠٨، ١٤١، ١٤٢.

[٣] وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص ٣٠-٣١، ٩٣.

[٤] بورشارد: المصدر السابق، ص ٦٤.

[٥] الاعتبار، ص ١١١-١١٢.

[٦] لشيزر اسم في رأس قائمة المدن السورية المتوغلة في القدم، أنظر مقدمة فيليب حتى لكتاب الاعتبار، ص ثاء وما بعدها

[*] هو نوع من الطير يدُرج في مشيه. أنظر: المعجم الوجيز، ص٢٢٤.

الدين زنكي ورافقه في أحد رحلات صيده فيقول عنه:" كان من أرمي الناس، فكان إذا دنا منه الغزال رماه، فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح "، كذلك شارك أيضا ابنه نور الدين محمود رحلات صيده بأرض حلب.[١] كذلك تحدث عن الصيد بدمشق أيام شهاب الدين محمود بن تاج الملوك للطير والغزلان وحمر الوحش واليخامير، ويذكر أنه أثناء عودته من رحلة صيد رأي الأمير سنجاباً [٢] فوق شجرة، فوقف تحت الشجرة ورماه مرتين أو ثلاثاً فما أصابه، فتركه وسار شبه المغتاظ لأنه لم يصبه، فقام رجل من الأتراك المرافقين الرحلة فرماه فوسط النشابة فيه، فاسترخت يداه وبقي معلقاً برجليه والنشابة فيه، حتى هزوا الشجرة فوقع " ولو كانت تلك النشابة في ابن آدم كان مات لوقته."[٣]ويروي وليم الصوري[٤] قصة طريفة حدثت للإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين (١٠٨٥- ١١١٨) الذي توجه للأراضي المقدسة قادماً من القسطنطينية، وعلي حدود بلاد الشام وفي إقليم طرسوس، حيث كان الإمبراطور شديد الولع بالمطاردة والصيد في الغابات والأحراج، فقد مضي الإمبراطور إلي الغابة يصحبه حراسه بغية القنص والتغلب علي ساعات الملل الرتيبة، وانطلق الإمبراطور والقوس في يده، وقد أثقله كثرة ما يحمل من سهام، وبينما هو في مطاردته للحيوانات البرية، إذا بخنزير بري يخرج فجأة وقد أثارته الكلاب المرافقة للإمبراطور وأفزعه نباحها، فاندفع الوحش وانطلق أمام المكان الذي يكمن فيه الإمبراطور، فأسرع فالتقط قوسه في خفة عجيبة ووترها بشدة ورمي عنها بسهم، فأصاب نصله كف الإمبراطور فجرحه جرحاً بسيطً لكنه أفضي في النهاية إلي موت الإمبراطور لأن السهم كان مسموماً.

---

[١] المصدر السابق، ص ٢٤٨، ٣٥٤.

[٢] حيوان أكبرمن الفأر،يعيش فوق الأشجار العالية، وينتشر ببلاد الإفرنج والصقالبة، يتميز بالنعومةوجلده غايةفي القوة ، حيث يتخذ منه الفراء وأفضل ألوانه الأزور والرمادي أنظر القلقشندي: صبح الاعشي، ج٢، ص ٥٠.

[٣] الاعتبار، ص ٢٤٩-٢٥٠.

[٤] أنظر: الحروب الصليبية، ج٣، ص ٢٠٥.

أما رحلة الصيد الشهيرة التي أطاحت بحياة الملك الصليبي فولك دي أنجو(١١٣١-١١٤٣م) فيوردها المؤرخون أنها حدثت في شهر نوفمبر ١١٤٢م حيث كان الملك وزوجته الملكة يقضيان بعض الوقت في مدينة عكا، فخرجا إلي أطراف غابة عكا حيث عيون المياه الجميلة والأشجار الباسقة، للقضاء علي رتابة الأيام بشيء من الرياضة المستحبة إلي نفسيهما وهي الصيد فخرج إلي الغابة يصحباهما حراسهم، وبينما كانا علي صهوة جواديهما، إذا بالخدم يثيرون أرنباً كان بداخل حفرة، فانطلق هارباً، وشاء قدر الملك السيئ أن يحمل رمحه وينضم إلي المطاردين للأرنب، وراح يهمز جواده ليسرع عدواً خلف الأرنب، فكبا الحصان كبوة أطاحت بالملك من فوقه وأوقعته علي رأسه مغشياً عليه " وأرتطم السرج برأسه فانبثق الدم من أذنيه ومن أنفه، وأغمي عليه ثم مات." [١]

العبادة الروحانية: ليس من شك أن الإنسان تضطره ظروفه الخاصة وأوضاع الحياة المحيطة به، إلي طلب العزلة والإنفراد بعيد عن الناس طلباً لراحة الضمير خاصة عندما تزداد شرور هذه الحياة ويختار حياة التقشف طوعا، وهو ما عرف في المسيحية بالرهبنة، ثم ما لبث هؤلاء الرهبان أن تجمعوا في مكان واحد انقطعوا فيه للعبادة وعرف هذا المكان بالدير.[٢] وقد تم اختيار هذه الأديرة في أماكن غير مأهولة بعيد عن المدن، فانتشرت في الصحراء والجبال والكهوف والغابات، وقد استهوت حياة الرهبنة أعداد كبيرة من المسيحيين في فترة العصور الوسطي، وقبل قدوم الحروب الصليبية للشام، سواء كان انتشارها بسبب مفاسد المجتمع آنذاك، أو بسبب الضرائب المفروضة علي الناس غير القادرين، أو بسبب الاضطهادات الدينية.[٣] وعلي الرغم من ذلك فقد ظلت هذه الأماكن تقوم بدورها كاملاً في خدمة المجتمع المسيحي.[٤]

---

[١] وليم الصوري: المصدر السابق، ج٣، ص٢١٤.

[٢] محمد محمد مرسي الشيخ: النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطي، ص ١٨٥.

[٣] سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطي، ج٢، ص ١٥٨.

[٤] دنس موك: تاريخ الكنيسة، ترجمة القس كميل فتحي قلادة (القاهرة، ٢٠٠١) ص ٥٥.

ولقد شارك الكثير من الشاميين المسيحيين إخوانهم في حياة الرهبنة، فانتشرت العديد من الأديرة للرهبان والراهبات في بلاد الشام، نأت بعيداً عن العمران واختارت ألاماكن البعيدة بالصحراء وبالقرب من الغابات النائية، كما لم تقتصر عبادة الانزواء والانقطاع علي المسيحيين فقط بل أن الكثير من المسلمين عاشوا فوق جبال لبنان، وهو أخصر جبال الدنيا، فيه أنواع الفواكه، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة، وقل ما يخلو من التبتل والزهادة، حيث يلتقي فيه المريدين المنقطعين إلي الله عز وجل، [1]كما يذكر الرحالة أبن جبير صورة جميلة لمدي التلاحم بين طوائف الشعب الشامي فيذكر قائلاً: [2] "ومن العجيب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المسلمين المنقطعين جلبوا له القوت، وأحسنوا إليهم وكانوا يقولون هؤلاء ممن انقطع إلي الله عز وجل وتجب مشاركتهم " فيذكر بورشارد [3] أن جبل الكرمل الذي يقع بين حيفا والجزء الشمالي من نابلس، والذي يبعد عن عكا نحو ثلاثة أميال، تغطي قمته الأشجار والأعشاب، حيث أعطت للمكان سحراً وجمالاً، وفي وسط سحر هذا المكان وجد " دير فائق الجمال " بني علي شرف القديسة مريم، وقد ظهرت عنده جماعة رهبان عرفوا باسم الكرمليين نسبة لهذا الجبل.

أما وليم الصوري فيذكر [4]أنه في شمال إنطاكية هضبة تعرف باسم " الجبل الأسود" تكثر فيها الينابيع والغابات والمراعي، وهذه المنطقة تزخر من قديم الزمن بكثرة الأديرة، كما تتوافر بها في وقتنا الحاضر أماكن طاهرة كثيرة بالمحبة.ويذكر دانيال الراهب [5]أنه قام من بيت المقدس برحلتين الأولي إلي نهر الأردن والبحر الميت، وزار أثنائها أريحا والأديرة اليونانية في وادي الأردن وفي برية بيت المقدس. وقد أهتم الصليبيون بإنشاء الأديرة بأراضي فلسطين والشام فقد قامت الملكة مليزند

---

(1) أبن جبير: رحلة بن جبير، ص ٢٣٨ -٢٣٩.

(2) رحلة بن جبير، ص، ٢٣٩.

(3) المصدر السابق، ص٣٨، هامش(١).

(4) الحروب الصليبية، ج١، ص ٢٧٦.

(5) دانيال الراهب، المصدر السابق، ص ٣٥.

زوجة الملك الصليبي فولك بإنشاء دير للنساء في منطقة العزارية علي سفح جبل الزيتون، والذي يعج بالأشجار من كافة الأنواع، وقد وهبت الملكة لهذا الدير مدينة أريحا بكل ملحقاتها الواقعة في سهل الأردن والغنية جداً كهبة لهذا الدير الجديد.[١]

غرائب الغابات:

كما للطبيعة غرائب فالغابات والأشجار لها غرائب أيضا في حياة البعض ممن عاشوا في تلك الفترة ونسوق في هذا الصدد حادثتين أحداهما يذكرها أبو شامة: [٢]" أنه في سنة ١١٦٦م (٥٦٠ هـ) وفي أثناء عودة نور الدين محمود إلي دمشق من احدي الحملات كان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر، سقط من يده في شعراء بانياس وهي منطقة غابات ملتفة الأغصان – فلما ابتعد عن المكان الذي ضاع فيه الفص اكتشف ذلك نور الدين، فأعاد بعض خواصة للبحث عنه بعد أن دلهم علي المكان الذي ربما سقط فيه، ومن غرائب الأمور أنهم عادوا إليه بعد فترة من البحث ووجدوه، وكانت سعادة نور الدين غامرة بذلك الفص.أما الحادثة الثانية فيذكرها أسامة أبن منقذ فقد ذكر[٣] أنه وفد إلي بانياس في جمع كبير عسكر من الصليبين ورافقهم البطرك، وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها، وكان يتولي خدمتها رجل مسن – شماس منهم – وقد فرش أرضها بالحلفاء والحشيش من الغابات المجاورة، فكثرت البراغيث فوقع لذلك الشماس أن يحرق الحلفا والحشيش لتحترق البراغيث، فطرح فيها النار، فارتفعت ألسنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رماداً، " فهذا لم يحضره العقل "

---

[١] وليم الصوري: المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٣.

[٢] : الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص ١٣٩-١٤٠.

[٣] :الاعتبار، ص١١١.

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة يتضح لنا مدى أهمية الدور الذي لعبته غابات بلاد الشام بالنسبة للطرفين الإسلامي والصليبي، فالغزاة الصليبيون استغلوا كل ما أتيح لهم من موارد اقتصادية أو بشرية في بلاد الشام ووجهوها لخدمة هدفهم الاستعماري. وكان الغطاء الغابي كما هو معروف يشغل مساحات واسعة من بلاد الشام، ويعد من أهم الموارد الاقتصادية بها. وقد تمكن الصليبيون من استغلاله وتطويعه لخدمة أهدافهم، سواء أثناء الزحف والتوغل في بلاد الشام أو بعد استقرارهم به، أما الشاميون فلم يستكينوا للغزاة بل دافعوا بكل الوسائل والفرص التي أتاحها لهم هذا الغطاء الغابي أيضا، ووضح من خلال الدراسة تمكن الشاميين من التأثير في إضعاف الاقتصاد الصليبي وذلك بمهاجمتهم الزراعات من خلال هذه الغابات، الأمر الذي جعل الصليبيون يقتصرون في اقتصادهم على التجارة وبعض الصناعات.

ومن خلال الدراسة أيضاً اتضح مدى اهتمام أهل الشام والصليبيين بعد ذلك بالصناعات التي ارتبطت بالغطاء الغابي ومن أهمها صناعات قطع الأثاث المنزلي ثم صناعات السفن والأدوية والعقاقير والحرير الطبيعي إلي غير ذلك من الصناعات التي ساهمت في ازدهار الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، حيث كثرت الصناعات المصدرة للخارج عن طريق المدن التجارية الإيطالية إلي أسواق أوربا الغربية. كما أوضحت الدراسة المعوقات التي أثرت على الغابات مثل الجفاف والأعاصير والسلوك والآفات الزراعية كالجراد المدمر لكل ما هو أخضر في هذه البلاد.

وأخيراً تناولت الدراسة الاستخدامات السلمية للغابات، وخاصة العبادات التي قام بها أعداد كبيرة من المسلمين والمسيحيين على السواء، وهم أُناس زهدوا الدنيا وهجروها آملين في حياة أفضل في الآخرة، وتفرغوا لعبادة الله الواحد، وعلى النقيض تماماً تحدثت الدراسة على حياة اللهو والصيد وخاصة من قبل الأمراء وخاصة المجتمع سواء من المسلمين أو الصليبيين الذين أرادوا البعد عن رتابة الأيام ومللها، وأملاً في التجديد والتغيير، فلجأوا إلي الغابات طالبين بغيتهم، وليس من شك بأن غابات بلاد الشام اتسعت لتحتضن كل هذه المتناقضات بين ربوعها. تم بحمد الله،،،

قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الدراسة :

أولاً : المصادر العربية :

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الجزء ١٠، ١١ (القاهرة، ١٩٧٩م)

أبن الجوزي:المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (حيدرأباد، ١٣٥٩هـ)

ابن خلدون: مقدمة بن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج٢،(القاهرة،٢٠٠٦)

أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية، (القاهرة، ١٢٨٨)

ابن شداد: النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، (القاهرة، ١٩٦٤م)

ابن العديم: ذبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، جزءان (دمشق، ١٩٦٨م)

ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد (لبنان، ١٩٧١م)

القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الأنشا، أجزاء، (القاهرة، ١٩١٣-١٩٢٠م)

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة، ١٩٤٢م)

المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج٢، (القاهرة، ١٢٧٠)

ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الشيال، (القاهرة، ١٩٦٠م)

ثانيا الرحالة المسلمين :

ابن بطوطة: مهذب رحلة بن بطوطة، (القاهرة، ١٩٦٦م)

أبن جبير: رحلة بن جبير، الطبعة الثانية (القاهرة، ١٩٩٨م)

المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن، ١٩٠٦م)

أسامة بن منقذ: الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، (برنستون، ١٩٣٠م)

أبوالفدا: تقويم البلدان، (باريس، ١٩٤٠م)

الأصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، (القاهرة ٢٠٠٤م)

ناصر خسرو: سفر نامة، ترجمة يحي الخشاب، الطبعة الثالثة، (بيروت، ١٩٨٣م)

ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١٠ أجراء (القاهرة، ١٩٠٦م)

ثالثاً: الرحالة الغربيين:

بورشارد: من دير جبل صهيون " وصف الأراضي المقدسة " ترجمة سعيد عبد الله البيشاوي(عمان، ١٩٩٥م)

ثيودريش: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد البيشاوي،رياض شاهين،(عمان، ٢٠٠٣م)

يوحنا فورزبورغ: وصف الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي، (عمان، ١٩٩٧م)

دانيال الراهب:وصف الأراضي المقدسة بفلسطين، تحقيق سعيدالبيشاوي، (عمان، ٢٠٠٣م)

سايولف: وصف رحلة سايولف إلي بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاوي،(عمان، ١٩٩٧م)

بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين إلي بيت المقدس، ترجمة عزار حداد، المجمع الثقافي،(أبو ظبي، ٢٠٠٢م)

ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، (القاهرة، ١٩٧٧م)

رابعاً: المصادر الأجنبية والمترجمة:

بطرس توديبود: تاريخ الرحلة إلي بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، (أسكندرية، ١٩٩٩ م)

ريموند آجيل:تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ترجمةحسين عطية،الطبعة الأولي،(إسكندرية، ١٩٨٩م)

فوشية الشارتري: تاريخ الحملة إلي القدس، ترجمة زياد العسلي، (دار الشروق، ١٩٩٠م)،

المؤرخ المجهول:أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، (القاهرة، ١٩٥٨م)

المؤرخ المجهول:الحرب الصليبية الثالثة، صلاح الدين وريتشارد، ترجمة حسن حبشي،(القاهرة، ٢٠٠٠م)

يعقوب الفتري: تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاوي، (الأردن، ١٩٩٨م)

وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، ٤ أجزاء (القاهرة، ١٩٩١م)

خامساً: المراجع الأجنبية :

Chalindon (f): Histoire de la premiere Croisade, (Paris,1925)

Conder (C.R): The Latin Kingdom of Jerusalem, (London,1897)

Grusset (R): Histoire des Croisades.(Paris,1948)

Hitti (Ph.): History of Syria, (London, 1951)

Rudolph (V.S): Description of the Holy Land, Writtin in the year 1350A.D, (London, 1895)

Michoud (M): Histoire des Croisades, Tom. I,(Paris,1813)

Perry: "The Second Crousades" in Setton: History of the Crousades. vol.,II.,(Philadephia,1955)

Richard (J): The Latin Kingdom of Jerusalem, Tran. by Janet Shirly,

(Holand, 1979)

Stevenson (W.H): The Crusades in the East, (Combridge, 1907)

سادساً: المراجع الأجنبية المترجمة:

جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، (القاهرة ٢٠٠٠م)

دنس موك: تاريخ الكنيسة، ترجمة القس كميل فتحي قلادة (القاهرة، ٢٠٠١).

رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، ٣أجزاء، (إسكندرية، ١٩٩٨م)

لين بول: صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس الصليبية، ترجمة فاروق سعد أبو جابر، الطبعة الأولي،(القاهرة، ١٩٩٥)

مورس كين: حضارة أوربا في العصور الوسطي، ترجمة قاسم عبده قاسم، (القاهرة، ١٩٩٤)

هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطي، ترجمة أحمد محمد رضا،(القاهرة ١٩٨٥م)

ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، المجلد ٨، (القاهرة ٢٠٠١م)

سابعاً:المراجع العربية:

حسام الدين جاد الرب: جغرافية العالم العربي، طبعة ثانية، (القاهرة ٢٠٠٤م)

حاتم عبد الرحمن الطحاوي: الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ط١، (القاهرة، ١٩٩٩م)

زبيدة محمد عطا: الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، ط٢،(القاهرة،١٩٩٤)

زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج، (بيروت،١٩٥٧م)

سعيد البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ط١، (إسكندرية، ١٩٩٠م)

السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، (أسكندرية، ١٩٦٧م)

السيد عبد العزيز سالم: البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، مقال ضمن كتاب البحرية المصرية،(إسكندرية، ١٩٧٤م)

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ح٢، ط٤، (القاهرة، ١٩٨٦م)

سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، سلسلة أعلام العرب، العدد٤١، (القاهرة، ١٩٦٥م)

عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطي، (القاهرة، ١٩٧٨م)

علي محمد فهمي: البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط، ضمن كتاب البحرية المصرية، (١٩٧٤م)

علية عبد السميع الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، (القاهرة، ٢٠٠١م)

قاسم عبده قاسم، علي السيد علي: الأيوبيين والمماليك، (القاهرة، ١٩٩٦م)

قاسم عبده قاسم: الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية، بحث في كتاب ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط المجلد الثاني، (القاهرة، ١٩٨٣م)

محمد خميس الزوكة: جغرافية العالم العربي (أسكندرية ١٩٩٥م)

محمد صبري محسوب: العالم العربي، دراسة جغرافية، (القاهرة ٢٠٠٢ م)

محمد محمد مرسي الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، (الإسكندرية، ١٩٨٠)

محمد محمد مرسي الشيخ:النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطي، (إسكندرية،٩٦)

محمد مؤنس عوض: الرحالة الأوربيون في العصور الوسطي، ط١ (القاهرة، ٢٠٠٤م)

محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية، السياسة – المياه – العقيدة، (القاهرة، ٢٠٠١)

يسري الجوهري: جغرافية شمال أفريقيا، (أسكندرية، ١٩٩٨)